تقريب القرآن إلى الأذهان الجزء السابع

للمرجع الديني
السيد محمد الحسيني الشيرازي
(قدس سره)

من آية ٨٤ من سورة المائدة
إلى آية ١١١ من سورة الأنعام

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين محمد المصطفى وعترته الطاهرين

لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ (٨٣) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٤)

[٨٣] ثم ذكر سبحانه فرقاً بين اليهود والنصارى، وأن اليهود طبيعتهم العامة العناد والاستكبار والعداوة، وأن النصارى ليسوا بتلك المثابة، إذ فيهم بعض المنصفين من العلماء، وما أصدق قوله سبحانه، فإننا نرى ذلك إلى اليوم، فقد نجد كثيراً من المسيحيين يُسلمون، ولا نجد إلا الشاذ النادر من اليهود يُسلمون {لتجدن} يا رسول الله {أشد الناس عداوة للذين آمنوا} أي للمسلمين {اليهود} فإنهم من أعدى أعداء المسلمين {والذين أشركوا} أي المشركين، فإنهم في صف اليهود ـ وبعدهم في الرتبة ـ عداوةً للمسلمين.

{ولتجدن أقربهم} أقرب الناس {مودة للذين آمنوا} أي حبّاً للمؤمنين {الذين قالوا إنا نصارى} فإنهم وإن كانوا نصارى بصرف اللفظ (قَالُوا إِنَّا نَصَارَى)[1] ، لا أنهم على تعاليم المسيح ودينه حقيقةً، لكنهم من أقرب الناس حباً للمسلمين {ذلك} أي سبب كونهم أقرب {بأن منهم} أي من النصارى {قسيسين} أي علماء من «القس» بمعنى نشر الحديث {ورهباناً} أي الزهاد أصحاب الصوامع من «رهب» بمعنى خاف {وأنهم لا يستكبرون} عن اتّباع الحق والانقياد إليه إذا علموه. وبهذه الصفة خرج من لم يكن كذلك من النصارى، فإن القيد يُخصّص المطلق.

[٨٤] هذه الآية وطرفاها وردت في قصة النجاشي ملك الحبشة، فإن الرسول (صلى الله عليه وآله) أرسل جعفر بن أبي طالب (عليهما السلام) مع جماعة من المؤمنين إلى النجاشي فأكرمهم وأعزّ وفادتهم، ثم أنه بعث إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) ثلاثة من القسيسين فقال لهم: انظروا إلى كلامه ومصلاه. فلما وافوا المدينة دعاهم رسول الله إلى الإسلام وقرأ عليهم القرآن: (إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلى وَالِدَتِكَ ـ إلى قوله ـ سِحْرٌ مُبِينٌ)[2]، فلما سمعوا ذلك من رسول الله (صلى الله عليه وآله)بكوا وآمنوا ورجعوا إلى النجاشي وأخبروه خبر رسول الله (صلى الله عليه وآله) وقرؤوا عليه ما قرأ عليهم، فبكى النجاشي وبكى القسيسون وأسلم النجاشي ولم يُظهر للحبشة إسلامه وخافهم على نفسه وخرج من بلاد الحبشة يريد النبي (صلى الله عليه وآله) فلما عبر البحر توفي، فنزلت هذه الآيات:

(١) سورة المائدة: ١٥.

(٢) سورة المائدة: ١١١.

{وإذا سمعوا} أي هؤلاء النصارى {ما أنزل إلى الرسول} من القرآن {ترى أعينهم تفيض من الدمع} أي من البكاء {مما عرفوا من الحق} أي لمعرفتهم أن المتلوّ عليهم حق، فإن الإنسان إذا عرف الحق، رأى الخارج على خلافه، أو رأى اضطهاد أهله، بكى رقة على الحق أو القائم به {يقولون ربّنا آمنا} بدينك ورسولك {فاكتبنا} أي سجلنا، سواء كان كتابةً حقيقيةً أو لا {مع الشاهدين} الذين شهدوا بالحق، والمراد بهم المسلمون هنا.

وَمَا لَنَا لاَ نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (٨٤)
فَأَثَابَهُمُ اللهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٨٥)
وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٨٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا
أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٨٧) وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلاَلاً طَيِّباً وَاتَّقُوا اللهَ
الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٨٨) لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الأَيْمَانَ
فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ
فَصِيَامُ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ (٨٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ
الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠)

[٨٥] {وما لنا} أي يقول هؤلاء النصارى: لأي عذر {لا نؤمن بالله} إيماناً حقيقياً كإيمان المسلمين {وما جاءنا من الحق} من القرآن والإسلام {و} الحال أنّا {نطمع} أي نرجو ونأمل {أن يدخلنا ربنا} في الجنة {مع القوم الصالحين}.

[٨٦] وقد حقق الله لهم الرجاء الذي رجوه {فأثابهم الله} أي جازاهم وأعطاهم الثواب {بما قالوا} أي بسبب قولهم ذاك المنبثق عن عقيدتهم الراسخة {جنات تجري من تحتها الأنهار} أي بساتين تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار {خالدين فيها} أي لهم الخلود فلا انقضاء للنعيم ولا زوال لهم {وذلك} الثواب {جزاء المحسنين} الذين يحسنون العقيدة والقول والعمل.

[٨٧] {والذين كفروا} كاليهود وسائر المسيحيين والمشركين {وكذّبوا بآياتنا} فلم يقبلوها {أولئك أصحاب الجحيم} الذين يلازمون النار، كما خلد أصحاب الجنة فيها.

[٨٨] وفي سياق ذكر الرهبان وهم يحرمون الطيبات على أنفسهم، يأتي النهي للمسلمين عن تحريم ما أحلّ الله، كما ينهى عن الإسراف والاعتداء، فإن كلا الطرفين منهي عنه مذموم {يا أيها الذين آمنوا لاتحرموا طيبات ما أحل الله لكم} أي لا تجعلوها بمنزلة المحرمات فتجتنبوا عنها اجتنابكم عن المحرمات ولفظة «ما» موصولة، أي طيبات الأشياء التي أحلها الله لكم، ولعلّ الإتيان بها لإفادة العموم، إذ لو قال: «طيبات أحل الله لكم» كان المتبادر منه طيبات خاصة، وليست إضافة طيبات إلى «ما» تفيد التقييد، بل هو من باب «قطيفة خز».

وقد نزلت هذه الآية في الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) وبلال وعثمان ابن مضعون، فأما علي (عليه السلام) فإنه حلف أن لا ينام بالليل أبداً إلا ما شاء الله، وأما بلال فإنه حلف أن لا يفطر

بالنهار أبداً، وأما عثمان بن مضعون فإنه حلف أن لا ينكح أبداً ـ كل ذلك بقصد الامتناع عن شهوات الدنيا رجاءَ ثواب الله ـ فدخلت امرأة عثمان على عائشة وكانت امرأة جميلة فقالت عائشة: ما لي أراك متعطلة؟ فقالت: ولمن أتزيّن، فوالله ما قربني زوجي منذ كذا وكذا فإنه قد ترهّب ولبس المسوح وزهد في الدنيا. فلما دخل رسول الله (صلى الله عليه وآله) أخبرته عائشة، فخرج فنادى الصلاة جامعة، فاجتمع الناس فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: ما بال أقوام يحرمون على أنفسهم الطيبات؟! إني أنام بالليل وأنكح وأفطر بالنهار فمن رغب عن سنتي فليس مني، فقام هؤلاء فقالوا: يا رسول الله فقد حلفنا على ذلك، فأنزل الله: (لاَيُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ)[3][4]، ولا يخفى أن مثل ذلك لايضر مقام عصمة الإمام لأنه:

أولاً: قيّد بـ«إلا ما شاء الله».

وثانياً: أنه من قبيل (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ»[5]، ولعل السر في المقامين أن الأمر كان جائزاً قبل النهي، ولفظة «لِمَ» ليس للتقريع، بل للإرشاد وإعطاء الحكم.

{ولا تعتدوا} حتى تسرفوا في تناول الطيبات، أو تتعدوها إلى الخبائث {إن الله لا يحب المعتدين} قد تقدم أن معنى «لا يحب» في هذه المقامات: أنه يكرههم ويبغضهم.

[٨٩] {وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً} أي في حال كون الرزق حلالاً ـ أي مباحاً ـ طيباً، أي لا ضرر فيه ولا خبث {واتقوا الله الذي أنتم به} أي بالله {مؤمنون} فلا تخالفوا أوامره ولا ترتكبوا زواجره.

[٩٠] {لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم} اليمين التي أجازها الله سبحانه هي التي تكون منعقدة وتترتب على حنثها الكفارة، أما اليمين اللفظية ـ التي تتداول على ألسنة الناس حيث يحلفون على كل صغيرة وكبيرة ـ واليمين التي لم يعط الله الرخصة في متعلّقها كيمين تحريم الطيبات على النفس زهداً، فهي لغو من اليمين لا تترتب عليها كفارة، ولايكون نقضها حنثاً {ولكن يؤاخذكم بما عقّدتم الأيمان} عن قصد وتعمّد مع صلاحية المتعلّق للانعقاد، فقول الإنسان: «لا والله» و«بلى والله» لغو لم يقصد به عقد اليمين، كما يعقد العقد، بل هو من قبيل التأكيد كما أن عَقْده بدون صلاحية المتعلق لا يفيد شيئاً. وقد سبق ذلك في سورة البقرة، لكن التكرار هنا فذلكة للحكم المتقدم وتمهيد للكفارة.

{فكفارته} أي كفارة ما عقّدتم من الأيمان، وسميت الكفارة كفارة لأنها تُكفّر الذنب وتستره، وإنما تجب الكفارة إذا حنث الإنسان مقتضى يمينه {إطعام عشرة مساكين} جمع مسكين، والمراد به الفقير، يُعطي كل واحد مُداً من الطعام، وهو ما يقرب من ثلاثة أرباع الأوقية ـ بحقة كربلاء ـ أو ثلاثة

---

(٣) سورة البقرة: ٢٢٦.

(٤) وسائل الشيعة: ج٢٣، ص٢٤٣.

(٥) سورة التحريم: ٢.

أرباع الكيلو، أو يطعمهم إطعاماً {من أوسط ما تطعمون أهليكم} فلا يجب في إطعامهم الحد الأعلى وهو الأرز مثلاً، ولا يجوز الأدنى كإطعامهم بالدخنة مثلاً {أو كسوتهم} أي يكسي كل واحد من العشرة بثوبين «المئزر والقميص» بأي جنس كان {أو تحرير رقبة} أي عتق عبد أو أمة لوجه الله سبحانه، وإنما عبر عن الإنسان بالرقبة، لعلاقة الكل بالجزء {فمن لم يجد} أحد الأمور الثلاثة للكفارة {فـ} كفارته {صيام ثلاثة أيام} متتابعات ـ كما ذكر الفقهاء ـ و {ذلك} المتقدم من الأمور الثلاثة ثم الصيام {كفارة أيمانكم} جمع يمين وهو الحلف {إذا حلفتم} ثم حنثتم {واحفظوا أيمانكم} فلا تحنثوها بل أوفوا بها {كذلك} البيان، أي مثل هذا البيان الذي بُيّن به الكفارة، وحكم اللغو في اليمين {يبين الله لكم آياته} واضحة لا لبس فيها ولا غموض {لعلكم تشكرون} الله سبحانه حيث أرشدكم إلى مصالحكم.

[٩١] وبعد ذكر تحليل الطيبات يأتي بيان تحريم الخبائث {يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر} وهي كل ما أسكر سواء كان من العنب أو غيره {والميسر} هو القمار بجميع أنواعه {والأنصاب} وهي الأصنام كانوا يذبحون لها الذبائح ويلطخونها بدمائها {والأزلام} قداح كانوا يستقسمون بها الذبيحة وذلك نوع من أنواع القمار خُصّص بالذكر لاشتهاره في زمن الجاهلية، وقد مر تفسير هذه الكلمات سابقاً {رجس} أي خبيث {من عمل الشيطان} فإن الشيطان هو الذي أمر بتعاطيها، مقابل عمل الرحمن، بمعنى: هو الذي أمر به وعمله، فإن الشيطان هو الذي عمل هذه الأشياء إما حقيقة كما يظهر من بعض الأحاديث، وإما مجازاً باعتبار وسوسته وإلقائه في قلوب الفاسقين {فاجتنبوه} أي اجتنبوا تعاطي هذه الأشياء فلا تشربوا الخمر ولاتضربوا الميسر ولا تعبدوا الأصنام وتستقسموا بالأزلام {لعلكم تفلحون} أي كي تفوزوا بخير الدنيا وسعادة الآخرة.

إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ (٩٢) وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاَغُ الْمُبِينُ (٩٣) لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (٩٤) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٥) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّداً فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْياً بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَاماً لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللهُ مِنْهُ وَاللهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (٩٦)

[٩٢] {إنما يريد الشيطان} بوسوسته وأمره بشرب الخمر ولعب الميسر {أن يوقع بينكم} أيها المسلمون {العداوة والبغضاء} والفرق بينهما أن أصل التعدي من فعل الجوارح، وأصل البغضاء من فعل الجوانح {في الخمر والميسر} أي بالنسبة إليهما، فإن «في» تستعمل بمعنى «النسبة» كما قالوا في قولهم: «الواجبات الشرعية في الواجبات العقلية» أن «في» بمعنى النسبة، أي بالنسبة إلى الواجبات العقلية.

في المجمع: أن سعد بن أبي وقاص ورجلاً من الأنصار كان مؤاخياً لسعد دعاه إلى طعام فأكلوا وشربوا نبيذاً مسكراً فوقع بين الأنصاري وسعد مراء ومفاخرة فأخذ الأنصاري لِحى جمل فضرب به سعداً ففزر أنفه. فأنزل الله ذلك فيهما[٦].

أقول: إن إيقاع العداوة بواسطة الخمر ظاهر، إذ السكر الموجب لذهاب العقل يوجب كل شيء، وإيقاعه بسبب القمار، من جهة الاختلاف بينهما فيمن له الغلب أولاً وبغض المغلوب للغالب ثانياً.

{ويصدكم} كل واحد من الخمر والميسر {عن ذكر الله} إذ الإسكار يوجب عدم الالتفات إلى الله سبحانه، والقمار بإشغاله الحواس، مُنسي له الله تعالى {وعن الصلاة} لما هو واضح مما تقدم {فهل أنتم} أيها المسلمون {منتهون} عنهما، فتتركونهما لهذه المضار، وصيغة الاستفهام بمعنى النهي كما هو واضح.

[٩٣] {وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول} في الأوامر والنواهي، ومن المعلوم أن طاعتهما واحدة، وإنما يذكر الله لأنه الأصل في الإطاعة، ويذكر الرسول لأنه المبلغ الذي بيّن الأمر والنهي {واحذروا} من

---

(٦) مجمع البيان: ج٣، ص٤١١.

مخالفتهما فإن ذلك موجب لخزي الدنيا والآخرة {فإن توليتم} أي أعرضتم عن إطاعتهما {فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين} فانتظروا العقوبة حيث قد بلّغكم الرسول فلم ينفعكم البلاغ وتجاوزتم الحد.

[٩٤] ولما نزل تحريم الخمر والميسر قال بعض الصحابة: يا رسول الله ما تقول في إخواننا الذين مضوا وهم يشربون الخمر ويأكلون الميسر - يريدون هل من إثم على الذين قتلوا أو ماتوا قبل التحريم، وهم يتعاطونهما؟ - فنزلت هذه الآية {ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح} أي إثم وحرج وعصيان {فيما طعموا} سابقاً قبل التحريم من الخمر وتعاطوا من الميسر وغلّب أحد اللفظين تخفيفاً كما قال الشاعر: «علفتها تبناً وماءً بارداً» {إذا ما اتقوا} «ما» زائدة، {وآمنوا وعملوا الصّالحات} أي إذا كان طعامهم مصاحباً للتقوى والإيمان والعمل الصّالح، ثمّ إنّ الإنسان قد يكون مؤمناً وعاملاً للصالحات لكنّه ليس متّقياً، أي ليس في نفسه حالة رادعة وملكة الخوف من الله سبحانه، ولذا ذكر سبحانه التقوى في عداد الإيمان والعمل الصالح. ثمّ كرر سبحانه الجملة السابقة أي «اتّقوا وآمنوا وعملوا الصّالحات» بتعبير {ثم اتقوا وآمنوا} بلا ذكر العمل الصالح و {ثم اتقوا وأحسنوا} بلا ذكر الإيمان، ولا يخفى أن الإحسان هو عبارة عن العمل الصالح. ولعل الوجه في التكرار إفادة الدوام في الصفات الثلاثة، أي أن عدم الجناح مشروط «بالإيمان والتقوى والعمل الصالح» سابقاً، «وبالإيمان والتقوى والعمل الصالح» مستمراً فيما بعد، وقد كررّ «التقوى» في الجملة الثانية لتأكيد أن كلاًّ من الإيمان والعمل الصالح لا ينفع بدون التقوى، والذي يقرّب إرادة الدوام من الجملة الثانية دخول «ثمّ» فيها، فاستمرار التقوى مع الإيمان، واستمرار التقوى مع العمل الصالح، شرط في عدم الجناح.

وهنا سؤال: إن ظاهر الآية «اشتراط عدم الجناح بالطعام، بالإيمان والتقوى والعمل الصالح» وإذا فرضنا أن الطعام كان محللاً - كما عرفت في شأن النزول، إذ كانت الخمر لم تحرم بعد - فما معنى هذا الشرط؟ فقد كان شرب الخمر - قبل تحريمها - مباحاً حلالاً للمسلم والكافر، فأي معنى لتقييد التحليل بالإيمان؟

والجواب: أن الشرط لا مفهوم له، فليس المعنى «الجناح إذا لم يؤمنوا» إذ الشرط كما يُساق غالباً لبيان المفهوم، نحو «إن جاءك زيد فأكرمه» المفهوم منه «إن لم يجئك فلا تكرمه» يُساق أحياناً لبيان تحقق الموضوع، نحو: «إن رُزقت ولداً فاختنه» فإنه لا مفهوم له بـ«إن لم ترزق ولداً فلا تختنه» إذ أن «لم يرزق ولداً» يكون من السالبة بانتفاء الموضوع، وإنما الجملة «إن رزقت» معناها: «يجب الختن للولد»..

وهنا كذلك، إذ الآية مسوقة لبيان «أن المؤمنين الذين شربوا وهم متقون عاملون بالصالحات ليس عليهم جناح» في مقابل توهم الأصحاب أن عليهم الجناح، لا أنه سيق للمفهوم حتّى يقال بعدم استقامة مفهومه.. ثم إنه من المحتمل أن يكون في تناول الكفار للمباح حضر، كما دلّ الدليل أن في تناول المباح للنُصّاب حضر، فمن شرب من نهر الفرات من أعداء الصديقة الطاهرة (عليها السلام) كان شربه محرماً، وعلى هذا فللمفهوم مجال واسع في الآية.

{والله يحب المحسنين} الذين يحسنون في أمورهم، وكأنه حث على الإحسان وإن لم يكن المحسن من أهل الإيمان. ولا يخفى أن من طعم محرماً وتذرّع لرفع الحد عنه بهذه الآية، فهو مخطئ إذ الآية تشترط في عدم الجناح الإيمان والتقوى والعمل الصالح، ومن المعلوم أن التقوى والعمل الصالح يتنافيان مع عمل المحرم.

[٩٥] وفي سياق التحليل والتحريم، وتتميماً لما تقدم في أول السورة من قوله سبحانه: «غير محلى الصيد وأنتم» وقوله: «إذا حللتم فاصطادوا» يأتي ذكر الصيد في حال الإحرام وكفارته {يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم الله} من «بلا» بمعنى اختبر، يعني ليختبركم الله ويمتحنكم {بشيء من الصيد} أي ببعض الصيد المحرّم على المحرِم {تناله أيديكم ورماحكم} فيكون في طريقكم إلى الحج بعض أقسام الصيد سهل التناول حتى أن أحدكم لو مدّ يده لتمكن من أخذه، ولو شرع رمحه لتمكن من صيده، وبالأخص فراخ الطير وصغار الوحش وبيض الطير المحرم، فقد ابتلي المؤمنين في عمرة الحديبية بكثرة الصيد في طريقهم إلى مكة وقد كان ذلك اختباراً من الله لهم، أيُّهم يطيع فيتجنب وأيُّهم يعصي فيصيد؟!

وإنما كان ذلك الاختبار {ليعلم الله من يخافه بالغيب} أي بالسر والخلوة، وبعيداً عن أعين الناس، وقد تقدّم سابقاً أن اختبار الله ليس لأنه لايعلم، وإنما لأجل أن يُظهر معلومه، ويُتم الحجة كما أن «ليعلم» يراد به «ظهور معلومه» فإن العلم حيث كان من الأمور ذات الإضافة صح أن يكون السبب له انكشاف المعلوم للعالم، وأن يكون وجود المعلوم في الخارج، والمراد بالغيب ما غاب عن الحواس، وهو إما بالنسبة إلى الله، أو بالنسبة إلى سائر الناس أي في حال عدم رؤيتكم لله سبحانه، أو عدم رؤية الناس لكم {فمن اعتدى بعد ذلك} أي بعد النهي ـ المستفاد من الكلام ـ بأن صاد وخالف أوامر الله {فله عذاب أليم} مؤلم موجع.

[٩٦] {يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم} أي في حال كونكم محرمين، والمراد بالصيد كل وحش أُكل أم لم يؤكل إلاّ ما استثني، و«حُرُم» جمع «مُحْرِم»، يقال: أحرم الرجل إذا دخل في الحرم أو في الإحرام، فالآية تدل على حرمة الصيد الحرمي، والصيد الإحرامي، كما أن ذلك، عام للحج والعمرة {ومن قتله} أي قتل الصيد {منكم} أيها المحرمون {متعمداً} وهذا القيد لا مفهوم له، لأنه من مفهوم اللقب الذي ثبت عند العلماء عدم المفهوم له، فإن للخطأ أيضاً كفارة، كما ثبت في السنة، ولعل فائدة القيد كونه الغالب الذي يتناوله الإنسان، بالإضافة إلى أنه يترتب على ما يأتي من قوله: «ليذوق وبال أمره» {فجزاء} عليه كفارة {مثل ما قتل من النعم} «من» بيان لجزاء، أن جزاءه أن يكفر بإحدى النعم الثلاث المشابهة لذلك الصيد المقتول. فمثلاً: الظبي شبيه بالشاة، وحمار الوحش وبقرته شبيهان بالبقرة، والنعامة شبيهة بالجزور {يحكم به} أي بالمثل {ذوا عدل منكم} أي رجلان عادلان، فيحكمان أن الحيوان الفلاني الذي اصطيد هو مثل الحيوان الفلاني من الأنعام الثلاثة ـ الشاة والبقرة والإبل ـ فكلما حكما بأنه مثل الصيد أُخذ كفارة له.

وقد ورد في الأحاديث: أن المراد بذوي العدل هم الرسول (صلى الله عليه وآله) والإمام (عليه السلام)[٧] فما وجد من النصوص في مورد المماثلة وجب الحكم به، وما لم يرد فالظاهر عدم المانع في التمسك بظاهر الآية من كفاية إخبار عادلين عارفين بالمماثلة، إن لم يوجد نص بالخلاف بالقيمة أو ما أشبه.

{هدياً} أي في حال كون الكفارة تهدى هدياً {بالغ الكعبة} أي يذهب بها إلى صوب الكعبة فإن أصاب الصيد وهو محرم بالعمرة ذبح جزاءه بمكة وإن كان محرماً بالحج ذبحه بمنى {أو} يكون جزاء الصيد {كفارة طعام مساكين} فإذا لم يجد الأنعام أخذ بقيمتها الطعام وتصدق به على المساكين {أو} يكون جزاء الصيد {عدل ذلك} أي معادل الإطعام {صياماً} فلكل مُدّين صوم يوم، وتفصيل هذه الأمور تطلب من الفقه في كتاب الحج.

وإنما شرعت الكفارة {ليذوق} الصائد {وبال} أي عقوبة {أمره} أي عمله وهو الاصطياد المنهي عنه {عفا الله عما سلف} من الصيد فمن صاد متعمداً وكفّر عفا سبحانه عن ذنبه {ومن عاد} إلى الصيد متعمداً مرة ثانية {ف} لا كفارة عليه من عظم ذنبه، فإنه لايغسل بالكفارة بل {ينتقم الله منه} في الآخرة انتقاماً لهتكه حرمة الإحرام أو حرمة الحرم.

هذا ما فُسّرت به الآية الكريمة في الأحاديث، وإن كان لا يبعد انصراف الآية الكريمة إلى «ما سلف» قبل التحريم والعفو باعتبار أنه غير جائز حتى عند الجاهليين، وما أعيد بعد التحريم، فيكون العفو عما سلف من قبيل «الإسلام يجبّ عما قبله» والمراد بالانتقام الكفارة والعقاب {والله عزيز} قادر غالب {ذو انتقام} ينتقم من كل من عصاه وخالفه.

---

(٧) الكافي: ج٤، ص٣٩٧.

أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُماً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩٧) جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلاَئِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٩٨) اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩٩) مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (١٠٠) قُلْ لاَ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللهَ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللهُ عَنْهَا وَاللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٠٢) قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ (١٠٣) مَا جَعَلَ اللهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلاَ سَائِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ (١٠٤)

[٩٧] {أحلّ لكم صيد البحر} والمراد من البحر الأعم من النهر، فإن العرب تسمي النهر بحراً، فإن صيده مباح في حال الإحرام، ولو في الحرم ـ لو صار فيه بحر، أو أتى بصيده إليه ـ هذا بالنسبة إلى صيده {و} أما بالنسبة إلى أكله فـ {طعامه} أي طعام البحر، قد متعتم به {متاعاً} والمتاع ما يتمتع به الإنسان {لكم} أيها المحرمون {وللسيارة} أي القوافل السيارة التي تسير كثيراً، فإن السمك يُجفّف للسفر، وإنما خُصص بالسفر مع أنه طعام للحضر أيضاً، لكثرة انتفاع المسافر، إذ لا يمكن غالباً ذبح الأنعام في السفر، فينتفع المسافر بالسمك المجفف انتفاعاً كثيراً {وحرم عليكم صيد البر} الأعم من الوحش والطير {ما دمتم حُرُماً} جمع «مُحْرِم»، أي ما دمتم في الإحرام وما دمتم في الحرم ـ كما تقدم ـ يقال: رجل حرام، إذا كان محرماً أو كان في الحرم {واتقوا الله} أي خافوا عقابه، فلا ترتكبوا نواهيه {الذي إليه تحشرون} الحشر هو الجمع، أي يكون مصيركم وحشركم إليه، فيجازيكم بما اقترفتم من الذنوب والآثام.

[٩٨] وفي سياق حكم الصيد في حال الإحرام، يأتي الكلام حول ما جعله سبحانه حراماً من المكان والزمان، ليهدي الناس في فترات معينة وأماكن معينة عن الخصام والانتقام، الذي يكدّر الحياة البشريّة {جعل الله الكعبة} سمّيت الكعبة «كعبة» لتربيعها وإنّما قيل للمربّع: كعبة لنتوء زواياه الأربع، مقابل المدوّر، والكعب هو النتوء والارتفاع {البيت الحرام} عطف بيان على الكعبة، وإنّما جيء بهذا العطف، لأنّه كانت لدى الجاهليين، كعبات متعدّدة وكانوا يحجّون إليها ويطوفون بها، فهدمها النّبي (صلى الله عليه وآله)، وسمّى البيت الحرام، لحرمته ولأنّه يحرم فيه القتال والصّيد وغيرها {قياماً للناس}

مفعول ثان لـ«جعل» أي جعل الله الكعبة لقيام النّاس، بأن تقوم أمورهم، وتستقيم أحوالهم، اقتصاديّاً واجتماعيّاً،وغيرهما، كما ذكر في فلسفة الحجّ(٨).

{و} جعل الله {الشهر الحرام} قياماً للناس، فأشهر الحرم: وهي ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ورجب، تُقوم أمور الناس واجتماعهم، إذ تخفّف عن كواهلهم عبء الحروب، والمخاصمات وتسبب الأمن والهدوء، مما يروّج الاقتصاد، ويهيئ الجوّ الملائم للتفاهم وغيرها، فالبيت الحرام أمن في المكان، والشهر الحرام أمن في الزمان، وقد جعل سبحانه الأمن متعدياً إلى خارج هذه الحدود فجعل {والهدي} أي محترماً لا يمس بسوء، وهو ما يُهدى إلى الكعبة بإشعار أو تقليد {والقلائد} جمع قلادة أي ما تقلّدها ـ بعلاقة الحال والمحل ـ أي جعل القلائد محترمةً لا تمس بسوء. والمراد بالقلائد إما الحيوان الذي يُقلّد، أو الإنسان الذي يحرم فيقلد نفسه. قالوا: كان الرجل يقلّد بعيره أو نفسه قلادة من لحاء شجر الحرم فلايخاف.

ولا يقال: أن غير الهدي والقلائد أيضاً محترم لأنه لا يجوز لأحد أن يتصرف في مال غيره أو بدن غيره فما معنى الاختصاص هنا؟

لأن الجواب ظاهر: فإن الهدي لا يجوز أن يُمس، وإن جاز مسّه لولا كونه هدياً بسبب الاقتصاص والإفلاس ونحوهما، كما أنه لايجوز أن يتعدّى على المحرم بما يجوز التعدي عليه في غير حال الإحرام، فلا يجوز أخذ المحرم وحبسه ولو كان بحق ـ إذ الواجب إتمام العمرة والحج لله ـ فكما لا يجوز لنفسه الإبطال لا يجوز لغيره الإبطال.

{ذلك} أي إنما جعل سبحانه هذه المحرمات {لتعلموا} أيها الناس {أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض} فإنه عالم بأحوال الإنسان وما يكتنفه من العداء والشر وأنه يحتاج إلى هدوء وسكينة في المكان وفي الزمان، وأن الناس يحتاجون إلى ما يُقيم معاشهم ومعادهم، ولذا جعل هذه المحرمات للاستراحة والاستجمام، ولعل ذكر السماوات استطراد، فإنّ ما ذكر مرتبط بالأرض، لكن لو ذكرت وحدها لأوهم عدم علمه سبحانه بما في السماوات {وأنّ الله بكلّ شيء عليم} من أحوال الإنسان والحيوان والأزمان والأماكن وغيرها.

[٩٩] ولما تقدّم بعض الأحكام عقّبه سبحانه بذكر الوعد والوعيد {اعلموا} أيها النّاس {أنّ الله شديد العقاب} لمن عصاه وخالفه {وأنّ الله غفور رحيم} لمن تاب وآمن وعمل صالحاً، فإنّه يغفر ذنوبكم ويرحمكم بفضله وسعته.

[١٠٠] {ما على الرسول إلا البلاغ} أي أداء الرسالة وبيان الشريعة، أما القبول من الناس فليس من شأن الرسول (صلى الله عليه وآله) ولا يرتبط به {والله يعلم ما تبدون} أي تُظهرون من

---

(٨) راجع كتاب "عبادات الإسلام" للمؤلف.

الأقوال والأعمال {وما تكتمون} من النيات والأعمال، فإنه لا يخفى عليه شيء ويجازيكم بكل ذلك، فأحسنوا ولا تخالفوا.

[١٠١] ولما بين سبحانه الحلال والحرام ذكر أنهما لا يستويان، فلا يتناول أحد خبيثاً مدعياً أنه لا فرق بين هذا وغيره، كما نرى اليوم كثيراً من الناس يتناولون المحرمات مدّعين عدم الفرق بينها وبين المحللات {قل} يا رسول الله: {لا يستوي الخبيث} المحرم {والطيب} المحلل، فإنهما ليسا متساويين {ولو أعجبك} أيها السامع {كثرة الخبيث} وزيادته على الطيب، كما نرى من أن أنواعاً من الحيوان المحرم أكثر من المحلل، فإن كثرة الخبيث لا تسبب طيبه ولعل قوله «ولو» لدفع استبعاد بعض الناس: أنه كيف يُمكن أن يكون هذا الشيء الكثير حراماً؟: {فاتقوا الله} أي خافوا عصيانه ولا تخالفوه {يا أولي الألباب} أي أصحاب العقول {لعلكم تفلحون} أي كي تفوزوا بالثواب العاجل والآجل.

[١٠٢] قلنا سابقاً قد جرت عادة القرآن الحكيم، بعدم إطالة أمر واحد، فيمل السامع فهو إذا أراد الإطالة، ذكر في الأثناء ما يلطّف الجو، ويرفع الملل من السامع، ببيان حكم جديد منبّه، وهكذا أتت آية السؤال هنا في وسط الحرام والحلال، بالإضافة إلى ارتباط الآية بالحج، حيث أنها وردت في باب السؤال عن الحج.

فقد روي عن الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) أن الرسول (صلى الله عليه وآله) خطب فقال: إن الله كتب عليكم الحج. فقام سراقة بن مالك فقال: في كل عام يا رسول الله؟ فأعرض عنه حتى عاد مرتين أو ثلاثاً فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): ويحك وما يؤمنك أن أقول: نعم، ولو قلت: نعم، لوجبت، ولو وجبت ما استطعتم، ولو تركتم لكفرتم، فاتركوني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم. فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه[٩]. فنزلت {يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء} متصفة بأنها {إن تبد لكم} أي تظهر لكم {تسؤكم} أي تسبب سوءاً أو حزناً وصعوبة عليكم {وإن تسألوا عنها} أي عن تلك الأشياء {حين ينزل القرآن} أي في فترة الوحي ووجود النبي بين أظهركم {تبد لكم} لأن الوحي يأتي إليه بالجواب فيكون موجباً للصعوبة عليكم بتشريع أحكام جديدة أنتم في غنى عنها.

وهنا سؤال: كيف يمكن عدم السؤال إن كان من الأمور المرتبطة بالدين؟ وهل أن أحكام الله اعتباطيّة حتّى يشرّعها السؤال؟ أليس كلّ حكم تابع للمصلحة والمفسدة، ويبيّن الرسول (صلى الله عليه وآله) ذلك لإيصال الناس إلى مصالحهم ومفاسدهم؟ وما خصوصية «حين ينزل القرآن» فإن الأئمة (عليهم السلام) أيضاً بتلك المثابة حيث أنهم يعلمون جميع الأحكام؟

---

(٩) بحار الأنوار: ج٢٢، ص٣١.

والجواب: أن الأحكام الشرعية تابعة للمصالح والمفاسد التي منها مصلحة التسهيل على المكلفين، فكثيراً ما لا يشرع حكم ـ كعدم وجوب السواك ـ لمصلحة التسهيل، ومن المعلوم أن هذه المصلحة قد ترتفع إذا كان هناك لُجاج وعناد وظلم، كما قال سبحانه: (فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ)(١٠)، وبهذا ظهر الجواب عن السؤال الثاني.

وأما السؤال الأول: فإن الرسول (صلى الله عليه وآله) إذا كان في مقام بيان جميع الأحكام، وليست القضية شخصية، كابتلاء بإرث لا يعلم تقسيمه، أو زوجة لا يعرف حقها، أو ولد عاص لا يدري كيف يعاشره أو أشباه ذلك، لم يكن وجه للسؤال، لأنه تعنّت وإرهاق.

وأما السؤال الثالث: فلأن المصالح التشريعية قد كملت في زمن الرسول (صلى الله عليه وآله) حتى أنه لا تشريع جديد بعده، ولذا فلم يكن الأئمة (عليهم السلام) بمثابة الرسول (صلى الله عليه وآله) في إمكان تشريع الحكم، وإن كان من الممكن التشريع لو حدث في زمن الرسول (صلى الله عليه وآله) شيء، وهذه المصلحة وهي انسداد باب التشريع حتى لا يكون لأحد ذلك ـ بعد الرسول (صلى الله عليه وآله) ـ وإن كان مفوّتاً لمصالح واقعية ـ مثلاً ـ لكنها أقوى في الاعتبار من مراعاة مصالح لأحكام جديدة.

ولعل الجواب على الإشكال الثاني يستفاد من حديث ورد عن الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: «إن الله افترض عليكم فرائض فلا تضيعوها، وحدّ لكم حدوداً فلا تعتدوها، ونهاكم عن أشياء فلا تنتهكوها، وسكت لكم عن أشياء ولم يدعها نسياناً فلا تتكلفوها»(١١).

{عفا الله عنها} أي عن تلك الأشياء فلا تتكلفوها، أنه سبحانه رجّح مصلحة التسهيل عليكم على مصلحة تلك الأحكام، فإن تسألوا عنها وتعاندوا ترفع تلك المصلحة التسهيلية فتبتلون بها {والله غفور} يغفر ما سلف {حليم} يمهلكم فلا يعجل في عقابكم.

[١٠٣] {قد سألها} أي سأل عن تلك الأشياء التي إن تبد تسيء السائل {قوم من قبلكم} من الأمم السابقة، كما سأل اليهود عيسى (عليه السلام) المائدة، ثم كفروا، وسأل بنو إسرائيل القتال، فلما أُجيبوا ولّوا إلا قليلاً منهم، وسأل قوم صالح الناقة ثم عقروها، أو «من المشركين» حيث سألوا من النبي أشياء ثم لما بدت لهم كفروا ولم يؤمنوا {ثم أصبحوا بها كافرين} فازدادوا عذاباً على عذابهم، وهذه الآية كالتعليل للنهي في الآية السابقة.

[١٠٤] ثمّ يرجع السياق إلى ذكر بعض الأمور المحللة التي حرمها أهل الجاهلية {ما جعل الله} أي لم يحرم الله ـ كما يزعم أهل الجاهلية ـ {من بحيرة} هي الناقة إذا شقّت أذنها، من «البحر» بمعنى الشق {ولا سائبة} من «ساب الماء» إذا جرى، أي الناقة السائبة التي تجري على الأرض بدون أن يمسها أحد ـ كما سيأتي ـ {ولا وصيلة} من «الصلة» ضد القطيعة وهي قسم من الناقة والشاة كانوا

---

(١٠) سورة النساء: ١٦١.

(١١) وسائل الشيعة: ج١٥، ص٢٦٩

يحرمونها {ولاحام} من «حمى يحمي» إذا حفظ، وهو قسم من الإبل كانوا يحرمونه لأنه حمى نفسه، فقد كان أهل الجاهلية إذا ولدت الناقة خمسة أبطن خامسها أنثى بحروا أذنها أي شقوها وحرموها على النساء فإذا ماتت حلّت، وإذا ولدت عشراً جعلوها سائبة لا يستحلون ظهرها ولا أكلها، وربما تُسيّب بنذر، فكان ينذر أحدهم إن برئ مريضه أو جاء مسافره فناقته سائبة، وإذا ولدت ولدين في بطن واحد، أو الشاة ولدت في السابع ذكر أو أنثى في بطن واحد قالوا: وصلت فلم تذبح ولم تؤكل وحرّموا ولدي الشاة على النساء حتى يموت أحدهما فيحل. والحام الفحل إذا ركب ولد ولده أو نتج من صلبه عشرة أبطن قالوا: قد حمى ظهره فلا يركب ولا يمنع من كلأ وماء، فأنزل الله عزّ وجلّ أنه لم يحرم من هذه الأمور شيء.

{ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب} فينسبون تحريم هذه الأشياء إلى الله سبحانه كذباً وبهتاناً {وأكثرهم لا يعقلون} أي ليس لهم عقل يميزون به بين الحرام والحلال والحق والباطل.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ (١٠٥) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلاَةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لاَ نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلاَ نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللهِ إِنَّا إِذاً لَمِنَ الآثِمِينَ (١٠٧) فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْماً فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ (١٠٨) ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَاسْمَعُوا وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (١٠٩)

[١٠٥] {وإذا قيل لهم} أي لهؤلاء الذين يحرمون أشياءً افتراءً {تعالوا} أي هلُمّوا {إلى ما أنزل الله} من الأحكام في القرآن {وإلى الرسول} كي تصدقوه وتتبعوا سنته {قالوا} في الجواب {حسبنا} أي يكفينا لمصالحنا {ما وجدنا عليه آباءنا} من العقائد والأقوال والأعمال والعادات.

وهنا يسأل سبحانه سؤال إنكار وتعجب بقوله: {أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً} من الحق والباطل {ولا يهتدون} إلى الحق، أي: فهل يتبعونهم ولو كانوا جُهالاً ضالين؟

[١٠٦] ولما بيّن سبحانه أحوال الكفار وأنهم ضالون أمر المسلمين باتباع الحق، وأنهم لا يضرهم ضلال من ضل، بينما هم مهتدين {يا أيها الذين آمنوا عليكم} «عليك» اسم فعل بمعنى: الزم واحفظ، أي احفظوا {أنفسكم} عن الضلال والانحراف {لا يضركم من ضل} من الناس {إذا اهتديتم} أي إذا كنتم مهتدين. ومن المعلوم أن من شروط الاهتداء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإرشاد وسائر الواجبات التي هي من هذا القبيل.

{إلى الله مرجعكم} أيها الناس {جميعاً} فإن مصير الضال والمهتدي إليه سبحانه {فينبئكم} أي يخبركم {بما كنتم تعملون} من الأعمال الحسنة والقبيحة، وليس كالدنيا يختلط فيها الحابل بالنابل فتؤخذون أنتم بذنوب الضالين اشتباهاً وتعمداً، أو يشتبه أمر الضالين، فلا يُجازون بالعقاب.

[١٠٧] ثم تعرّض سبحانه لبيان تشريع جديد ورد في قصة خاصة، يرجع إلى سَنّ بعض الأحكام، بعدما فرغ من بعض أقسام الحلال والحرام. فقد روي عن الإمام الباقر (عليه السلام) أن ثلاثة نفر خرجوا من المدينة تجاراً إلى الشام: تميم بن أوس الداري وأخوه عدي، وهما نصرانيان، وابن أبي مارية

مولى عمرو بن العاص السهمي وكان مسلماً، حتّى إذا كانوا ببعض الطريق مرض ابن أبي مارية فكتب وصيته بيده ودسها في متاعه وأوصى إليهما ودفع المال إليهما وقال: أبلغا هذا إلى أهلي. فلما مات فتحا المتاع وأخذا ما أعجبهما منه ثم رجعا بالمال إلى الورثة، فلما فتش القوم المال فقدوا بعض ما كان قد خرج به صاحبهم فنظروا إلى الوصية فوجدوا المال فيها تاماً فكلموا تميماً وصاحبه فقالا: لا علم لنا به وما دفعه إلينا، أبلغناه كما هو، فرفعوا أمرهم إلى النبي (صلى الله عليه وآله) (١٢). فنزلت الآية، وستأتي تتمة القصة.

{يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم} «شهادة» مرفوع بالابتداء خبره «اثنان» أي الشهادة المعتبرة شرعاً فيما بينكم شهادة نفرين {إذا حضر أحدكم الموت} بأن ظهرت عليه آثار الموت {حين الوصية} أي في وقت الوصية {اثنان ذوا عدل منكم} أي رجلان عادلان من المسلمين {أو آخران} أي شخصان آخران لتحمل الشهادة {من غيركم} أي من غير المسلمين، و«أو» هنا للترتيب لا للتخيير {إن أنتم ضربتم في الأرض} أي سافرتم ولم تجدوا مسلمين للإشهاد على الوصية فأشهدوا نفرين آخرين {فأصابتكم مصيبة الموت} بأن ظهرت علائمة، والجملة الشرطية لتقييد قوله «آخران» فإن إشهادهما مشروط بالضرب في الأرض، وهذا من باب المورد، وإلا فالمعيار عدم وجود مسلمين، وإن كان في الحضر، فإذا تحملا الشهادة، وأرادا الإدلاء بها فهو بهذه الكيفية {تحبسونهما} أي تقفونهما {من بعد الصلاة} أي صلاة العصر وذلك لاجتماع الناس وتكاثرهم في ذلك الوقت، ولعله ليكون أردع للكذب إذ الاجتماع يسبب الهيبة في قلب المدلي للشهادة {فيقسمان} أي الشاهدان غير المسلمين {بالله} وهذا دليل على أن الشاهد يجب أن يكون معترفاً بالله كأهل الكتاب {إن ارتبتم} أي شككتم في شهادتهما واحتملتم التبديل والتغيير والتزييف في الأمر، وهذا شرط للقسم، أي أنهما يقسمان في حال شكّكُم، وإلا فيدليان بالشهادة بدون القسم {لا نشتري به} أي بما نُدلي من الشهادة {ثمناً} وهذا هو المقسم به، فلا نُغيّر الشهادة ولا نُبدّل ولا نُزيّف الواقع، ابتغاء تحصيل ثمن، أي مال {ولو كان} المشهود له {ذا قربى} أي من أقربائنا، وخُصص بالذكر لأن الناس دائماً يميلون إلى أقربائهم فيشهدون بالباطل لنفعهم، وهذا كالتأكيد، وإلا فليس هنا مشهوداً له. والمعنى: أن لا ندلي شهادة باطلة حتى لأقربائنا {ولا نكتم} أي لا نخفي {شهادة الله} أي الشهادة التي أمرنا الله بأدائها. والإضافة تعظيمية {إنا إذاً} لو كتمنا شهادة الله {لمن الآثمين} أي العاصين.

وحاصل الحكم أن الإنسان إذا أراد أن يوصي فعليه أن يُشهد على وصيته شاهدين مسلمين عادلين، فإن كان في سفر وظهرت عليه أمارات الموت، ولم يكن هناك مسلمون لتحمل الشهادة، يُشهد على وصيته شاهدين كتابيّين، وتقبل شهادتهما بدون اليمين إن لم يشك الوارث بهما، أما إذا شك بهما

---

(١٢) بحار الأنوار: ج٢٢، ص٣١.

واحتمل أنهما يكذبان في الشهادة، فالحاكم الشرعي يحضرهما بعد صلاة العصر، ويحلفهما أولاً بهذا الحلف: «والله إنا لا نبتغي بالشهادة مالاً ولا نبدل الشهادة حتى لأقربائنا ولا نكتم الشهادة التي ألزمها الله إيماناً ولو فعلنا ذلك لكنا آثمين» وبعد أداء هذا القسم أو شبهه في المعنى، يُدليان بشهادتهما حول الوصية، وتقبل شهادتهما حينئذ.

[١٠٨] لما نزلت الآية الأولى صلّى رسول الله (صلى الله عليه وآله) صلاة العصر ودعا بتميم وعدي فاستحلفهما عند المنبر بالله ما قبضنا غير هذا ولا كتمنا فخلّى رسول الله (صلى الله عليه وآله) سبيلهما، ثم اطلعوا على إناء من فضة منقوش بذهب وقلادة من جوهر معهما من مال الميت فقال أولياء الميت: هذا من متاع الميت. فقال النصرانيان: اشتريناه منه ونسينا أن نخبركم، فرفعوا أمرهما إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) فنزل قوله «فإن عثر» فقام رجلان من أولياء الميت عمرو بن العاص والمطلب بن أبي وداعة فحلفا بالله أن النصرانيين خانا وكذبا، فدفع الإناء إلى أولياء الميت، وبعد مدة أسلم تميم الدارمي فكان يقول: صدق الله وصدق رسوله أنا أخذت الإناء فأتوب إلى الله وأستغفره.

{فإن عثر} يقال: «عثر الرجل على الشيء» إذا اطلع عليه، فـ«عُثِر» مبني للمجهول بمعنى: «ظهر» {على أنهما} أي الوصيين غير المسلمين {استحقا} أي استوجبا {إثماً} أي ذنباً، بأن ادّعى الأولياء أنهما كذبا في اليمين والشهادة بل خانا الوصية {فـ} شاهدان {آخران} مسلمان {يقومان مقامهما} أي مقام غير المسلمين {من الذين استحق عليهم} أي من أولياء الميت الذين استحقت عليهما الوصية، وكان المال لهم {الأوليان} تثنية «أولى»، بدل من قوله «آخران» أي يقوم شاهدان كل واحد منهما أولى بالميت، أي من أقربائه وذي ولايته، وهذان ينقضان شهادة الوصيين الكاذبين غير المسلمين {فيقسمان} أي وليا الميت {بالله لشهادتنا} نحن أولياء الميت . في تكذيب الوصيين . {أحق من شهادتهما} أي من شهادة الوصيين الكاذبين، وكلمة «أحق» جرّدت من معنى التفضيل . كما سبق . {وما اعتدينا} أي ما تجاوزنا الحق بل نطلب مال الميت {إنا إذاً} لو اعتدينا كنا {لمن الظالمين} لنفوسنا حيث قسمنا كذباً، وإذا حلف وليّا الميت كذلك نقض حلف الوصيّين، وأُخذ المال منهما وأعطي إلى ولي الميت.

[١٠٩] {ذلك} الذي تقدم من كيفية إحلاف الوصيين بعد الصلاة {أدنى} أي أقرب {أن يأتوا} أي يأتي الوصيان {بالشهادة على وجهها} فإن اليمين رادعة لكثير من الناس عن الكذب {أو يخافوا} إذا علموا بأنهم إن حلفوا كاذبين {أن ترد أيمان} إلى أولياء الميت فيحلفان على كذبهما ويكون الحق لهما دون الوصيين {بعد أيمانهم} فيجمعون بين فضيحة الكذب والسرقة، وفضيحة الحلف الكاذب {واتقوا الله} فلا تحلفوا به كذباً {واسمعوا} هذه الموعظة {والله لا يهدي القوم الفاسقين} الذين يفسقون بالخروج عن طاعته، وارتكاب معصيته، فإنه لا يلطف بهم اللطف الخاص بالمطيعين.

يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لاَ عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (١١٠)
إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ
(١١١) وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ (١١٢) إِذْ
قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١١٣) قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ
عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (١١٤)

[١١٠] قد سبق جانب من قصص اليهود والنصارى، ويأتي هنا جانب آخر من قصة النصارى في ثوب بديع {يوم يجمع الله الرسل} أي اتقوا يوم الحشر الذي يجمع الله فيه الأنبياء المرسلين جميعاً {فيقول} لهم: {ماذا أُجبتم} أي بماذا أجابكم الأمم هل بالإيمان والتصديق أم بالكفر والتكذيب؟ {قالوا} أي قال الرسل في جوابه: سبحانه {لا علم} كامل {لنا} فإنا لم نرَ منهم إلا الظواهر، أما البواطن والخفايا فأنت العالم بها وحدك {إنك أنت علام الغيوب} أي الأشياء الغائبة عن الحواس، وقصد الآية هنا الإجمال، أو ذلك في موقف من مواقف القيامة، إذ لها مواقف كل موقف منها يخالف الموقف الآخر في الخصوصيات والمزايا. هذا جواب الأنبياء بصورة عامة. أما جواب عيسى (عليه السلام) ففيه تفصيل وسيأتي بعد آيات من قصة عيسى (عليه السلام).

[١١١] {إذ قال الله} أي «يقول» فإن المضارع المتحقق الوقوع يُنزّل منزلة الماضي، ومحل «إذ» النصب على «اتقوا» أي: اتقوا زمان يقول الله: «يا عيسى»، أو على تقدير «اذكر» {يا عيسى ابن مريم} وذكر «ابن مريم» استنكار لقول النصارى إنه «ابن الله». {اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك} والمراد بالنعمة جنسها، لانعمة واحدة، ومعنى ذكر النعمة شكرها، والإتيان بما يستحق المنعِم بها. ومن المعلوم أن النعمة على الوالدة بالعفاف والطهارة وغيرهما، من أعظم النعم على الولد، فهي مما تستحق الشكر. ثم فسر سبحانه بعض نعمه بقوله: {إذ أيدتك} أي قويتك ونصرتك {بروح القدس} أي الروح المنزّه عن الأدران، وهو جبرئيل (عليه السلام) أو ملك آخر، أو روح منفوخة فيه تحفظه عن الزلل فإن الأنبياء والأئمة مزوّدون بروح طاهرة تحفظهم وترشدهم بأمر الله سبحانه {تكلم الناس في المهد} أي في حال كونك صبياً فإنه (عليه السلام) قال: (إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً * وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً

أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً..)[١٣] {وكهلاً} أي في حال كونك كهلاً، وهو قبل سن الشيخوخة، وهذا من تتمة الكلام، يعني أنك تكلم الناس في الحالين، لا كسائر الناس الذين لا يتكلمون إلا في حالة واحدة.

{وإذ علمتك الكتاب} أي جنس الكتاب المنزل من السماء، فإنه كانت كتب نازلة على الأنبياء السابقين وقد كان (عليه السلام) تعلمها بتعليم الله سبحانه {والحكمة} وهي معرفة الأشياء على واقعها، فإن معرفة الكتب غير معرفة الحكمة، وأن يكون الإنسان بحيث يعلم الأمور ومواضعها {والتوراة} وهي الكتاب المنزل على موسى (عليه السلام) {والإنجيل} وهو الكتاب المنزل على المسيح نفسه (عليه السلام) {وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير} أي على قالب الطير وهيكله. ومن المعلوم أن هذا النحو من التجسيم لم يكن حراماً لأنه كان بأمر الله، وليس التحريم عقلياً حتى لايمكن التخصيص فيه {بإذني} ولعل «بإذني» إشارة إلى ذلك، أو أن الخلق إنما كانت بقدرته، إذ لو لم يأذن الله لم يتمكن أحد من خلق شيء وصنعه {فتنفخ فيها} أي في تلك الهيئة التي خلقتها. ولا يخفى أن الروح جسم لطيف فيمكن أن ينفخ المسيح (عليه السلام) بإذن الله ذلك الجسم في الهيكل المصنوع {فتكون طيراً بإذني} أي طيراً حقيقياً كسائر الطيور، بأمري وإرادتي {وتبرئ الأكمه} أي تشفي الذي ولد أعمى {والأبرص} الذي به البرص {بإذني} أي بأمري وإرادتي {وإذ تُخرج الموتى} من القبور فتجعلهم أحياءً {بإذني} وإرادتي، فإنك تدعوني لهذه الحوائج وأنا أستجيب دعاءك {وإذ كففت} أي منعت {بني إسرائيل} اليهود {عنك} فلم يقدروا على قتلك {إذ جئتهم} أي حين أتيت إليهم {بالبينات} أي بالأدلة القاطعة على صحة نبوتك وصدق كلامك {فقال الذين كفروا} بك وجحدوك ولم يؤمنوا بما جئت به {منهم} أي من بني إسرائيل {إن هذا} أي ما هذا الذي نرى من خوارقك {إلا سحر مبين} أي سحر واضح.

[١١٢] {و} اذكر نعمتي عليك يا عيسى ابن مريم {إذ أوحيتُ إلى الحواريين} «الوحي» هنا بمعنى الإلقاء إليهم، ولو كان ذلك بواسطة نفس عيسى أو يحيى (عليهما السلام) أو المراد الإلهام إلى قلوبهم، بواسطة العقل الذي هو حجة باطنة. والمراد بالحواريين أصحابه الخاصون به، وسبق وجه تسميتهم بالحواريين {أن آمنوا بي وبرسولي} المسيح (عليه السلام)، فإن الإيمان بالله نعمة على المسيح، كما أن تصديقه (عليه السلام) نعمة عليه، إذ الأمران موجبان لقربه (عليه السلام) إلى الله سبحانه حيث تمكن من هدايتهم، بالإضافة إلى لزوم ذلك الاحترام الظاهري {قالوا} أي الحواريون: {آمنا} أي بالله ورسوله {واشهد} يا ربنا، أو المراد الاستشهاد بعيسى (عليه السلام) {بأننا مسلمون} لله فيما يأمر وينهي.

---

(١٣) سورة مريم: ٣١ و٣٢.

[١١٣] واذكر نعمتي عليك يا عيسى ابن مريم حينما جرى الحوار بينك وبين الحواريين حول إنزال الله المائدة فطلبت من الله فاستجاب لك وأنزل المائدة {إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم} ولعلهم ذكروا اللفظ بتأدّب. وإنما نقل سبحانه المعنى، أو كان مثل هذا الخطاب بأمر عيسى (عليه السلام) نفسه، أو كان لديهم متعارفاً {هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء} إما المراد: الاستطاعة بحسب القدرة، وكان ذلك حين عدم كمال إيمانهم، وإما المراد: الاستطاعة بحسب الإرادة، أي: هل يريد؟ وكان سؤال استعطاف، و«المائدة» مشتقة من «ماد يميد» إذا تحرك، فهي فاعلة، سُمّي بها الخوان، لأنه يميد ويتحرك من مكان لآخر وقت البسط والجمع، وقد أرادوا إتيان عيسى بهذه المعجزة ليروها ويلمسوها ويأكلوا منها، فلا يبقى محل ريب عندهم في صدق الدعوة.

ولعل ذلك كان قبل سائر الآيات من إبراء الأكمة والأبرص، ولذا {قال} لهم عيسى (عليه السلام): {اتقوا الله} أي خافوه فلا تسألوا سؤال جاهل ذي ريب {إن كنتم مؤمنين} بالله بما له من صفات الكمال التي منها الاستطاعة على مثل هذا الأمر الهيّن.

[١١٤] {قالوا} أي قال الحواريون: {نريد أن نأكل منها} أي من المائدة {وتطمئن قلوبنا} إما الاطمئنان بأصل المبدأ وأنك رسوله، أو الاطمئنان بالرؤية، كما قال الخليل (عليه السلام): (قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي)[١٤] {ونعلم أن قد صدقتنا} بما أخبرت من الشريعة. وهذا محتمل أيضاً لإرادة العلم العياني، ولإرادة أصل العلم لكونهم في شك {ونكون عليها} أي على المائدة {من الشاهدين} الذين يشهدون لمن لم يحضر بأنه قد نزلت المائدة ورأيناها عياناً.

---

(١٤) سورة البقرة: ٢٦١.

قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيرُ الرَّازِقِينَ (١١٥) قَالَ اللهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لاَ أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ (١١٦) وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (١١٧) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٨) إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٩) قَالَ اللهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢٠) للهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٢١)

[١١٥] {قال عيسى ابن مريم} داعياً الله سبحانه: {اللهم ربنا} ـ وكان الإتيان بلفظ الرب، للمبالغة في الدعاء ـ أنت الذي ربّيتنا، فتفضل علينا بإتمام التربية {أنزل علينا مائدة من السماء} أي خواناً عليه طعام، يأتي من طرف العلو {تكون} المائدة {لنا عيداً لأولنا وآخرنا} أي نتخذ ذلك اليوم الذي تنزل فيه المائدة عيداً، فإن الأعياد في الأمم، إنما هي بمناسبة ذكريات انتصاراتهم. ومن المعلوم أن تكريم جماعة بنزول المائدة عليهم من قبل الله سبحانه من أعظم الذكريات التي ينبغي أن يُحتفل بها، ـ أول القوم ـ الذين نزلت عليهم، و ـ آخر القوم ـ أي من يأتي من بعدهم من أبنائهم.

{وآية منك} أي دليلاً وعلامةً من قبلك على التوحيد والنبوة وما أشبههما {وارزقنا} من المائدة {وأنت خير الرازقين} فإنك تتفضل بالنعم كرماً وجوداً ولا تريد عوضاً تنتفع به بخلاف الناس إذا أعطوا شيئاً فإنهم يريدون بدلاً عنه يصل إليهم.

[١١٦] {قال الله} سبحانه في جواب عيسى (عليه السلام): {إني منزلها} أي أنزّل المائدة {عليكم} أيها السائلون لها {فمن يكفر بعد منكم} أي بعد إنزالها عليكم {فإني أعذبه عذاباً} شديداً {لا أعذبه أحداً من العالمين} أي لا أعذب مثل ذلك العذاب أحداً من العصاة الذين هم في ذلك الزمان، فإن إطلاق «العالمين» غالباً، يكون على عالم زمان واحد. والسبب في شدة العذاب أنهم كفروا بعدما آمنوا وطلبوا المعجزة، وقبِل منهم ولبّى طلبهم.

ورد عن أهل البيت (عليهم السلام): أن المائدة كانت تنزل عليهم فيجتمعون عليها ويأكلون منها ثم ترتفع فقال كبراؤهم ومترفوهم: لاندع سفلتنا يأكلون منها معنا. فرفع الله المائدة ببغيهم ومُسخوا قردةً وخنازير(١٥).

[١١٧] تقدم أن الله سبحانه يسأل الأنبياء عن جواب الأمم لهم، ثم ذكر جملة من معجزات عيسى المقتضية لإيمان الناس به إيماناً عادلاً، لكن النصارى رفعوه فوق مقامه إذ جعلوه إلهاً، ولذا يتوجه السؤال إليه (عليه السلام) في مشهد القيامة حول هذا الافتراء الذي نسب إليه (عليه السلام) حتى تظهر براءته من ذلك، فيكون المجال فسيحاً أمام عقاب من ادّعى ذلك كذباً وبهتاناً، في يوم يجمع الله الرسل فيقول: «ماذا أجبتم»؟ {وإذ قال الله} أي «يقول» فإن المستقبل المتحقق وقوعه ينزل منزلة الماضي {يا عيسى ابن مريم أأنت} أي: هل أنت، على نحو الاستفهام التوبيخي لمن ادعى ذلك، والتقريري بالنفي بالنسبة إلى المسيح (عليه السلام) {قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله} أي سوى الله، لا أنهم لايعتقدون بألوهية الله تعالى {قال} عيسى (عليه السلام) في جواب ذلك: أسبحك {سبحانك} أي أُنزهك يا رب تنزيهاً عن مثل هذا الكلام {ما يكون لي} أي ليس يجوز بالنسبة لي {أن أقول ما ليس لي بحق} فآمر الناس باتخاذي إلهاً {إن كنت قلته} أي قلت للناس: اتخذوني وأمي إلهين {فقد علمته} لكن لا تعلم ذلك ـ على نحو السالبة بانتفاء الموضوع ـ فلست قائله {تعلم ما في نفسي} أي سريرتي، فكيف بأقوالي العلانية؟ {ولا أعلم ما في نفسك} وهذا على جهة المقابلة، وإلا فليس لله سبحانه نفس، وقوله «ولا أعلم» لبيان ضراعته (عليه السلام) إليه سبحانه وإلا فلم يكن الكلام مسوقاً إليه {إنك أنت علام الغيوب} أي تعلم كل غيب عن الحواس، ولست أنا كذلك، فأنت تعلم أني لم أقل «اتخذوني وأمي إلهين» للناس.

[١١٨] ثم بين (عليه السلام) ما قاله لقومه زيادة في التبرّي من هذا القول المختلق المنسوب إليه {ما قلت لهم} أي للناس {إلا ما أمرتني به} من الإقرار لك بالعبودية، فقد قلت لهم: {أن اعبدوا الله ربي وربكم} فأنا وأنتم متساوون في عبادة الله وكونه ربنا وخالقنا {وكنتُ عليهم شهيداً} شاهداً أرى أقوالهم وأعمالهم {ما دمتُ} كنت {فيهم} أي في وسطهم {فلما توفيتني} أي أخذتني مستوفىً كاملاً إلى السماء ـ وقد سبق وجه ذلك ـ {كنت أنت} يا إلهي {الرقيب عليهم} أي المراقب لهم فيما يعملون ويعتقدون ويقولون {وأنت على كل شيء شهيد} أي شاهد حاضر.

[١١٩] إن مبدأ القوم هو أنت «ربي وربكم» ومعادهم بيدك وحدك {إن تعذبهم فإنهم عبادك} لا يقدرون على رفع شيء من أنفسهم ولا يقدر غيرك على نجاتهم {وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز} القادر {الحكيم} الذي لا يفعل شيئاً إلا طبق الحكمة والمصلحة، وفي هذا تسليم الأمر لمالكه

(١٥) بحار الأنوار: ج١٤، ص٢٤٨.

وتفويض الأمر إلى مدبره، وهذا التعبير لا ينافي علم عيسى (عليه السلام) بأنهم معذبون، فإنه كما يقول أحدنا لمالك الأمر: «إنه بيدك إن شئت فعلت وإن شئت تركت» حتى مع علمنا أنه يفعل أحدهما لامحالة. هذا بالإضافة إلى أن بعضهم ـ وهم القاصرون ـ قابلون للغفران.

[١٢٠] {قال الله} بعد ذلك الحوار، في مشهد القيامة {هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم} فلا الكاذب المغالي القائل «المسيح ابن الله»، أو «هو الله»، ينفعه كذبه، ولا الكاذب المغالي القائل «بأن المسيح بشر غير نبي» ينفعه كذبه، إنه يوم الصدق، وينفع الصادق صدقه {لهم} أي للصادقين {جنات تجري من تحتها} أي تحت قصورها وأشجارها {الأنهار خالدين فيها أبداً} مما لا نهاية له {رضي الله عنهم} بما عملوا في دار الدنيا {ورضوا عنه} بما أعطاهم من الجزاء والثواب {ذلك} المقام الذي حصلوه بما عملوا {الفوز العظيم} الذي لافوز بعده أعظم منه.

[١٢١] إن النصارى كذبوا في جعل الشريك لله، فـ {لله ملك السماوات والأرض} لا شريك له فيهن، ولا ملك غيره {وما فيهن} مما يوجد فيهما من إنسان أو حيوان أو نبات أو جماد أو غيرها {وهو على كل شيء قدير} فلا يمتنع عليه شيء، ومن هذه صفته لا يكون له شريك في الملك.

سورة الانعام

مكيّة . مدنية/آياتها (١٦٦)

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١)
الْحَمْدُ للهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ
يَعْدِلُونَ (٢) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ (٣) وَهُوَ
اللهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ (٤) وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ
آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٥) فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ
يَسْتَهْزِئُونَ (٦) أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا
السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَاراً وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً
آخَرِينَ (٧) وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَ سِحْرٌ
مُبِينٌ (٨) وَقَالُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكاً لَقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لاَ يُنْظَرُونَ (٩)

سورة الأنعام:

سميت بذلك لاشتمالها على كلمة «الأنعام».

وفي حديث: أن سورة الأنعام نزلت جملة واحدة، وشيعها سبعون ألف ملك لعظمتها(١٦).

[١] {بسم الله الرحمن الرحيم} ابتداء باسم الإله الرحمن الرحيم الذي يرحم العباد ويعطف عليهم.

[٢] ولما كان ختام السورة السابقة أن «لله ملك السماوات والأرض» ابتدأت هذه السورة بمثل ذلك الختام {الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض} واللام في الحمد للجنس، أي أن جنس الحمد لله إذ جميع المحامد راجعة إليه، و«السماوات» غالباً تأتي بصيغة الجمع بخلاف الأرض التي تأتي مفردة إشعاراً بأكثرية السماوات على الأرض، وإلا فالأرضون أيضاً سبعة كما قال سبحانه: (وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ)(١٧) {وجعل الظلمات والنور} أي كوّنهما، و«الظلمة» إن كانت عدم ملكة، فمكوّن الملكة

---

(١٦) وسائل الشيعة: ج٦، ص٢٣٠.

(١٧) سورة الطلاق: ١٣.

مكون العدم لأن أعدام الملكات لها حظ من الوجود كما قالوا. وقد أتى بالظلمات جمعاً بخلاف النور، للتناسب مع الجملة السابقة «السماوات والأرض» ولعل سر الإتيان بصيغة الجمع انقسام الظلمات حوالي النور فإن النور يشق طريق الظلمة، كلما قرب النور كان أرق.

ثم أظهر سبحانه التعجب من الذين يتخذون من دون الله أنداداً بينما كان كل شيء لله سبحانه {ثم الذين كفروا} بعد كل هذه الآيات والدلائل {بربهم يعدلون} أي يسوونه بغيره ويجعلونه عِدلاً وشريكاً ومثيلاً لأشياء أخرى مما لا أثر لها ولم تخلق شيئاً.

[٣] وحيث أن الجو العام في هذه السورة حول العقيدة مبدءاً ومعاداً، والأمور الكونية التي خلقها سبحانه تنتقل بالآيات من عقيدة إلى عقيدة، ومن خلق إلى خلق {هو الذي خلقكم من طين} إما باعتبار أبينا آدم (عليه السلام) وإما باعتبار خلق كل فرد من التراب والماء، فإن الإنسان من النطفة وهي من النبات والحيوان وهما من الأرض والماء {ثم قضى} أي قدّر وكتب {أجلاً} أي مدة للإنسان عامة، حتّى تنقضي الدنيا، أو لكل فرد حيث أن لكل فرد مدة لا يتجاوزها {وأجل مسمى عنده} إما تفصيل لـ«أجلاً» أي أن الله سبحانه هو مصدر الأجل المسمّى الذي سمي لكل شخص فليس بيد غيره الآجال، وإما المراد أن البعث الذي هو أجل ومدة لبقاء الإنسان في الدنيا حياً وميتاً {عنده} فبيده قيام الساعة {ثم أنتم} أيها البشر {تمترون} أي تشكّون في الله سبحانه. إنه بيده الخلق والموت والبعث لا بيد غيره، فكيف تشكون فيه وتتخذون غيره شريكاً له؟!

[٤] {وهو الله} لا إله غيره {في السماوات وفي الأرض} أي أن الخالق والمتصرف في هذا الكون ليس إلا الله، خلافاً لمن كان يجعل للسماء إلهاً خاصاً، وللأرض إلهاً غيره. ومعنى «في» الظرفية المجازية، وإلا فليس لله سبحانه مكان، إذ المكان يوجب التحديد، والتحديد يوجب التجزئة، والتجزئة من صفات المصنوع لا الصانع {يعلم سركم} الخفي المكتوم، أعم مما في الصدور، أو من الأسرار {وجهركم} مقابل ذلك بالمعنيين {ويعلم ما تكسبون} أي ما تعملون من الأعمال، فإن العمل من كسب الإنسان. وفي هذه الآيات ردٌّ على الدهرية القائلين بقدم السماوات والأرض، والثنوية القائلين بإلهين: نور وظلمة، والمشركين الذين يجعلون له سبحانه شريكاً، والجُهّال من الفلاسفة الذين يقولون بعدم عموم علمه أو قدرته، ومن أشبههم من أصحاب العقائد الزائفة حول إله الكون.

[٥] ثم أخبر سبحانه عن الكفار الذين تقدم ذكرهم في أول السورة، قال: {وما تأتيهم من آية} أي معجزة ودليل وبرهان وحجة {من آيات ربهم} الدالة على وجوده وصدق رسالتك يا رسول الله {إلا كانوا عنها معرضين} لا يقبلونها ولا ينظرون إليها نظر منصف معتبر.

[٦] {فقد كذبوا} أي الكفار {بالحق لما جاءهم} من القرآن والرسول وسائر الآيات {فسوف} في القيامة، أو في الدنيا حين ظهور الرسول ووضوح صدقه بالسيطرة والغلبة ـ كما أخبر ـ

{يأتيهم أنباء} أي أخبار {ما كانوا به يستهزئون} من الحق. وفي الآية تهديد، كما تقول للمجرم: «سوف تعلم إجرامك» تريد أنه يلاقي جزاءه، إن كان المراد بـ«سوف» القيامة.

[٧] ثم حذرهم سبحانه أن يصيبهم ما أصاب الأمم السالفة حيث كذبوا وعصوا وعتوا عن أمر ربهم {ألم يروا} استفهام تذكيري توبيخي، أي «ألم يعلموا» . فإن الرؤية تستعمل بمعنى العلم . {كم أهلكنا من قبلهم من قرن} أي من الأمم، و«القرن» أهل كل عصر، وسمّوا بذلك لأن بعضهم يقترن ببعض، ولذا اختُلف في المدة المراد به، لاختلاف الاعتبار {مكناهم} أي تلك الأمم {في الأرض} بأن جعلناهم ملوكاً وقادة وساسة ذا عَدد وعُدد وإمكانيات {ما لم نمكن لكم} حيث كانوا هم أكثر تمكناً منكم. والظاهر أن الخطاب خاص بالكفار في زمن الرسول (صلى الله عليه وآله) حيث كان السابقون أكثر تمكناً منهم. لا يقال: إن من المحتمل كون بعض الأمم السالفة أكثر تمكناً من جميع من يأتي إلى يوم القيامة حتى يكون الخطاب عاماً؟ لأن الجواب ظاهر، إذ قوله: «ألم يروا» ينافي ذلك فإن الناس لم يعلموا أخبار هكذا أمة ـ كما تقولون ـ بل ما رواه إنما هو أخبار الأمم التي كانت أقوى من الكفار في زمانه (صلى الله عليه وآله){وأرسلنا السماء عليهم مدراراً} هو من «درّ إذا هطل»، و«مدرار» صيغة مبالغة، أي كثيرة الهطول، حتّى عمّهم الخير والبركة والثروة. والمراد بالسماء: المطر، بعلاقة الحال والمحل، كما قال الشاعر:

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضاباً

{وجعلنا الأنهار} أي مياهها بعلاقة الحال والمحل {تجري من تحتهم} أي تحت قصورهم وأشجارهم، أو باعتبار أن الماء تحت سطح الأرض التي يمشون عليها. وكل ذلك لم يفدهم في بقائهم وحسن ذكرهم {فأهلكناهم بذنوبهم} والمراد: هلاكهم بذهاب أثرهم وانقطاع نسلهم وعقبهم، وفناء حضارتهم، بسبب عصيانهم وكفرهم مقابل الأنبياء (عليهم السلام) والصالحين الذين بقوا إلى يوم الناس هذا، وإن صلاحهم وحسن أعمالهم سبب بقاء آثارهم وبقاء ذكرهم وبقاء مناهجهم {وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين} أي خلّقنا من بعدهم أمة أخرى وجماعة آخرين.

[٨] ثم بيّن سبحانه أن هؤلاء الكفار معاندون في كفرهم، لا لأنهم لم يعملوا الحق {ولو نزّلنا عليك} يا رسول الله {كتاباً في قرطاس} أي مكتوباً في ورق يشهد لك بصدقك {فلمسوه بأيديهم} أي مسّوه بيدهم، حتى يتيقنوا بأن ذلك ليس من الشعوذة وستر العيون {لقال الذين كفروا إن هذا} أي ما هذا الكتاب {إلا سحر مبين} أي سحر ظاهر، فلا يصدقونك.

قالوا: نزلت هذه الآية في جماعة من الكفار قالوا: يا محمد لانؤمن لك حتى تأتينا بكتاب من عند الله معه أربعة من الملائكة يشهدون عليه أنه من عند الله وأنك رسوله.

[٩] {وقالوا} أي قال هؤلاء الكفار {لولا} أي هلاّ، ولماذا ما {أنزل عليه ملك} أي على الرسول، ملك نشاهده فنصدق به، ثم رد الله عليهم مقالتهم بأنه {ولو أنزلنا ملكاً} كما اقترحوه

{لقضي الأمر} أي انتهى أمدهم وأجلهم {ثم لا ينظرون} أي يهلكون ويموتون، وذلك لما جرت سنة الله أن لا تنزل الملائكة بالنسبة إلى المعاندين، إلا وقت موتهم.

وهنا سؤال: إن هذا لا يكون جواباً للكفار ـ على هذا المعنى ـ إذ لهم أن يقولوا: فليغيّر الله سنته، بأن ينزل الملك ويبقينا حتى نؤمن؟ وسؤال ثان: لماذا جرت سنة الله على ذلك، أليس هداية الناس غاية الخلقة، فما المانع من توفر أسباب الهداية بإنزال الملك؟

والجواب عن الأول: إن سنة الله جرت على الهلاك عقب مجيء الملائكة، كما جرت سنته على الإحراق عقيب الإلقاء في النار، وليس للكفار أن يُشكلوا بهذا الإشكال، إذ يقول النبي: ولماذا تريدون نزول الملائكة؟ أللعناد؟ فلا داعي إلى إجابتكم، أم لأنه خارق والإتيان بالخارق موجب للتصديق؟ فقد أتيت بالخوارق، أم لأنه خارق خاص؟ فالخارق الخاص لا يلزم إجابته لدى العقل والعقلاء، وهذا كما إذا حمل الطبيب شهادة الكلية فيقول له المريض: ائتني بشهادة رئيس الحكومة، إنه سؤال سخيف لدى العقلاء..

والجواب عن الثاني: إنه سبحانه علم عنادهم وأنه لا يفيد معهم إنزال الملك، كما بيّن ذلك في قوله (وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً)[١٨]، وما كان يمنعهم أن يقولوا أن ما يشاهدونه من صورة الملك إنما هو سحر مبين!

---

(١٨) سورة الأنعام: ٨.

وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ (١٠) وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ
قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (١١) قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ
كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٢) قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلْ للهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ
لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ (١٣) وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي
اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٤) قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ
وَلاَ يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٥) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ
عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٦) مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (١٧)
وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٨)
وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١٩)

[١٠] ثم بيّن سبحانه وجهاً آخر لعدم إجابة اقتراحهم {ولو جعلناه} أي الرسول (صلى الله عليه وآله) {ملكاً} منزلاً من السماء {لجعلناه رجلاً} أي في صورة رجل، فإن خلقة البشر غير مستعدة لرؤية الملك في صورته، إلا إذا بدّلت صورته إلى صورة إنسان وواقع ملك، وذلك لا يفيد اقتراحهم، فإن الملك جرم لطيف لا تراه أعين البشر، كما لا يرى الإنسان الهواء {وللبسنا} من اللبس بمعنى الاشتباه {عليهم} أي على هؤلاء المقترحين إنزال الملك {ما يلبسون} أي كما يلبسون اليوم على أنفسهم أمر النبي لأنه إنسان مثلهم، فكان إنزال الملائكة في صورة بشر موجباً لأن نُلبس نحن عليهم الأمر . مثل لبسهم هذا اليوم . وحاصل جواب الاقتراح:

أولاً: أن الملك لا ينزل إلا لأمور خاصة، كما نزل في قصة إبراهيم ولوط (عليهما السلام) .

ثانياً: إن الملك إذا نزل، نزل في صورة بشر، فيبقى شكّهم على حاله.

[١١] ثم قال سبحانه على سبيل التسلية للنبي (صلى الله عليه وآله): {ولقد استهزئ برسل من قبلك} استهزأت بهم أممهم وسخروا منهم، فلست أنت بأول رسول يُستهزأ بك ويُقترح عليك اقتراحات عن عناد وسخرية {فحاق بالذين سخروا منهم} أي: فحلّ وأحاط بالساخرين بالرسل {ما كانوا به يستهزئون} أي أحاط بهم العذاب الذي هو جزاء سخريتهم، أو المراد أن الأنبياء كانوا يتوعدونهم بالعذاب فكانوا يسخرون بوعيدهم، فحاق بهم العذاب المستهزأ به.

[١٢] {قل} يا رسول الله لهؤلاء الكفار: {سيروا في الأرض} أي سافروا فيها {ثم انظروا} إذا مررتم ببلدان الأنبياء، وتفكروا {كيف كان عاقبة المكذبين} أي الأمم التي كذبت أنبياءهم، كيف أبيدت ولم تبق منهم باقية، فإن ديار الأمم السابقة حوالي سوريا ولبنان والأردن وفلسطين ومصر كانت

باقية وآثار الخسف والهلاك على بعضها، وأخبار الهلاك والتدمير كانت عند الناس مشهورة، فإذا سافروا وسألوا علموا ذلك، وكان ذلك سبباً لردعهم عن تكذيب الرسول (صلى الله عليه وآله) والاستهزاء بالقرآن.

[١٣] ثم احتج سبحانه على المكذبين بحجة أخرى فقال: {قل} يا رسول الله لهؤلاء المكذبين: {لمن ما في السماوات والأرض} إذ لايتمكنون أن يجيبوا بأنها لهم، ولا أنها لأصنامهم، وإذ يتحيرون بالجواب {قل} أنت: إنما هي كلها {لله} فلماذا تتخذون إلهاً غيره؟ وإذ سبق التهديد والوعيد جاء هنا بالتبشير كي تلين القلوب القاسية بالتهديد مرة والتبشير أخرى {كتب} أي أوجب سبحانه {على نفسه الرحمة} على الخلق واللطف بهم، وإيجاب ذلك من مقتضيات الحكمة لكي تطلبوا أيها الناس رحمته الواسعة بالإطاعة والامتثال، لأنه إله الكون وراحمهم في هذه النشأة و {ليجمعنكم إلى يوم القيامة} أي جمعاً ينتهي إلى ذلك اليوم، فإن الناس يجتمعون تدريجاً لا دفعة، فكل إنسان يولد فولادته مقدمة للموت الذي ـ بدوره ـ يجمع الناس فرداً فرداً حتى ينتهي الجمع في يوم القيامة، فبيده سبحانه المعاد أيضاً {لا ريب فيه} أي محل ريب، وإن ارتاب المبطلون.

وإذا كان المبدأ والوسط والمعاد بيده تعالى فـ {الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون} أي أن غير المؤمنين يكونون قد خسروا أنفسهم حيث باعوها واشتروا عوضها العذاب، بينما باع المؤمنون أنفسهم واشتروا بها الجنة والثواب.

[١٤] {وله} أي الله سبحانه {ما سكن} وهدأ {في الليل والنهار} أو المراد بـ«ما سكن» مطلق الأشياء الساكنة والمتحركة، من قولهم: فلان يسكن بلد كذا، أي يستقر فيه، فلله كل ما استقر وحلّ في هذين الزمانين «الليل والنهار»، أما على الثاني فوجه الكلام واضح، وأما على الأول فلعل التخصيص بالساكن ـ مقابل المتحرك ـ لإلقاء الرهبة في النفس حيث أن الساكن يلقي ظلال الموت الرهيب، ولذا يرى الإنسان نفسه تهدأ وتسكن إذا صار في محل ساكن لا حسّ فيه ولاحركة {وهو السميع} لأقوال العباد ولكل صوت {العليم} بكل شيء.

[١٥] {قل} يا رسول الله لهؤلاء الكفار: {أغير الله} أي هل غير الله سبحانه {أتخذ ولياً} أي مالكاً ومولىً ورباً؟! وهو المتصف بكونه {فاطر السماوات والأرض} أي خالقهما ومُبدعهما ومنشئهما، إنه من السخافة أن يترك الإنسان الخالق ويتمسك بذيل المخلوق {وهو} أي الله سبحانه {يطعم} فإن الأطعمة والأرزاق من عنده {ولا يطعم} أي لا يرزقه أحد، فهل من المنطق أن يترك الإنسان الخالق الرازق ويتخذ المخلوق المرزوق ولياً من دون الله، الذي ليس بيده أي شيء؟ {قل} يا رسول الله لهؤلاء الكفار: {إني أمرت} أمرني الله {أن أكون أول من أسلم} لله وصدّق بكلماته واتبع أوامره، وكوني أول من أسلم لعلمي التّام بالخالق سبحانه، كما قال: «إني أول من يجاهد»، «وإني أول من يسافر» دلالة لامتلاء النفس بذلك الشيء {و} أمرني الله بأن {لا تكونن} التأكيد للنفي {من

المشركين} الذين يجعلون مع الله شريكاً. والظاهر أن المراد بالشرك أعم ممن يجعل مع الله شريكاً مع الاعتقاد به سبحانه، أو بدون الاعتقاد به، والمعنى: إني أمرت بالأمرين، الإسلام، وعدم الشرك.

[١٦] {قل} يا رسول الله لهؤلاء المشركين: {إني أخاف إن عصيت ربي} بمخالفة أوامره {عذاب يوم عظيم} أي عذاب يوم القيامة، وإنما قال «أخاف» مع أنه متيقن إما من جهة التعبير بالخوف حتى عن المتيقن، كما يقول من حكم عليه بالإعدام: «إني أخاف الموت» أي أرهبه، وإما لاحتمال النجاة لأن رحمته وسعت كل شيء، فمعنى الخوف على هذا الاحتمال رجاء العفو والرحمة.

[١٧] {من يصرف} العذاب {عنه يومئذ} أي في ذلك اليوم العظيم {فقد رحمه} إذ لا أحد . باستثناء المعصومين . إلا ويكون مستحقاً للعذاب، ولذا كان الصرف عنه بمقتضى الرحمة {وذلك} الصرف، أو الرحمة {الفوز} والفلاح {المبين} الواضح الذي لا فوز مثله.

[١٨] ويستطرد السياق بذكر بعض صفاته سبحانه في مقابل المعاندين المنكرين {وإن يمسسك الله بضر} من «مسّ أي أمسك» بما هو ضرر من فقر أو مرض أو ما أشبههما {فلا كاشف له} أي دافع له {إلا هو} فلا أحد مؤثر في الكون، وإنما العلل تؤثر في المعلولات بإذن الله سبحانه {وإن يمسسك بخير} غنى أو صحة أو ما أشبههما {فهو على كل شيء قدير} إنه القادر المطلق على الخير والشر، أما مَن سواه فقدرته من قدرته، مع أنه ليس له إلا قدرة ناقصة لبعض الأشياء.

[١٩] {وهو} تعالى {القاهر} أي الذي يقهر ويغلب {فوق عباده} أي الجميع تحت تسخيره وسيطرته، لا الفوقية المكانية، فإنه أجل من الزمان والمكان {وهو الحكيم} في أعماله، فليس كونه قاهراً موجباً للخوف من ظلمه، كسائر الجبابرة القاهرين {الخبير} بما يصدر من العباد، فلا يأخذ أحداً بجرم أحد كما هو شأن القاهرين من البشر، حيث يشتبهون كثيراً لجهلهم.

قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لاَ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٢٠) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ (٢١) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٢) وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٢٣) ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَنْ قَالُوا وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٤) انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٥) وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَ يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (٢٦) وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٢٧) وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٨)

[٢٠] في بعض التفاسير: أن أهل مكة أتوا الرسول (صلى الله عليه وآله) فقالوا: أما وجد الله رسولاً غيرك، ما نرى أحداً يصدقك فيما تقول، ولقد سألنا عنك اليهود والنصارى فزعموا أنه ليس لك عندهم ذكر، فأرنا من يشهد أنك رسول الله كما تزعم[١٩]، فنزلت هذه الآية: {قل} يا رسول الله لهؤلاء الكفار: {أي شيء أكبر شهادة} أي أعظم من حيث الشهادة، حتى آتيكم به دليلاً على صدقي وصحة نبوتي، إنهم يتحيرون في الجواب طبعاً، ويفكرون في الناس العظماء بنظرهم ليقولوا: «فلان»، لكن الرسول (صلى الله عليه وآله) يقطع تحيرهم وتفكرهم بما علمه الله سبحانه {قل} يا رسول الله: {الله شهيد بيني وبينكم} أي هو شاهد يشهد بصدق نبوتي. وقد مرّ سابقاً أن شهادة الله هي إجراء الإعجاز على يده الكريمة {وأوحي إلي هذا القرآن} أنزله تعالى عليّ {لأنذركم به} أي لأخوفكم بهذا العقاب، وأخوّف من كفر وعصى {ومن بلغ} عطف على «كم» أي أنذر به من بلغه هذا القرآن إلى يوم القيامة.

وروي عن الباقر والصادق (عليهما السلام): أن «من بلغ» معناه: من بلغ أن يكون إماماً من آل محمد فهو يُنذر بالقرآن كما أنذر به رسول الله[٢٠].

وعليه فهو عطف على الضمير المرفوع في «أنذر» أي أنذر أنا الرسول والأئمة ـ الذين هم مصداق «من بلغ» ـ الناس {أئنكم} أي: هل إنكم أيها السامعون الكفار {لتشهدون أن مع الله آلهة

(١٩) مجمع البيان: ج٤، ص٢٢ وتفسير القمي: ج١، ص١٩٥.

(٢٠) الكافي: ج١، ص٤١٦.

أخرى}؟ استفهام إنكاري، أي: كيف تشهدون بذلك بعد وضوح أدلة التوحيد وقيام الحجة والبرهان على بطلان كل شريك؟ والمراد الشريك مطلقاً ولو كان واحداً، وذكر «آلهة» من باب المورد {قل} أنت يا رسول الله، إذا لم يعترف أولئك بالتوحيد: {لا أشهد} أنا بمثل شهادتكم بالشريك، وإنما أنا لا أعتقد إلا إلهاً واحداً {قل} يا رسول الله: {إنما هو إله واحد} لا شريك له {وإنني بريء مما تشركون} أي من الأوثان التي تشركون بسببها، وتدخلون أنفسكم في زمرة المشركين من أجلها.

[٢١] ثم ذكر سبحانه أن أهل الكتاب كسائر المشركين يعلمون الحق لكنهم يتجاهلونه {الذين آتيناهم} أي أعطيناهم {الكتاب} يراد به جنس الكتاب الأعم من التوراة والإنجيل وغيرهما {يعرفونه} أي يعرفون الرسول {كما يعرفون أبناءهم} فكما يعرف الشخص ابنه بحيث لايمكن أن يشتبه بغيره، كذلك لا يشتبه أهل الكتاب بمعرفة الرسول بوصفه ومزاياه الموجودة في كتبهم {الذين خسروا أنفسهم} بأن باعوها بالكفر، الذي عاقبته {فهم لا يؤمنون} إن عدم الإيمان مترتب على الخسران، فالخاسر لا يؤمن والرابح يؤمن.

[٢٢] {ومن أظلم} أي من يكون أكثر ظلماً وتعدياً عن الحق {ممن افترى على الله كذباً}؟! بأن جعل له شريكاً وزعم أن الله أمره بذلك، كأهل الكتاب وقسم من المشركين الذين كانوا يقولون: إن الله أمرنا باتخاذ الأنداد والشركاء {أو كذّب بآياته} كما لو كذب بالقرآن أو بالرسول أو بالمعجزات، فإنها كلها من آيات الله سبحانه، لكن الكتاب آية صامتة، والرسول آية ناطقة {إنه لا يفلح الظالمون} إنهم لا يفوزون بخير الدنيا، ولا سعادة الآخرة.

[٢٣] {و} اذكر يا رسول الله {يوم نحشرهم جميعاً} وهو يوم القيامة الذي يجمع فيه هؤلاء المشركون وسائر المكذبين {ثم نقول للذين أشركوا} وجعلوا لله شريكاً {أين شركاؤكم} أي الشركاء لله الذين زعمتم أنهم كذلك. والإضافة إلى «كم» باعتبار أنهم اتخذوها، كما تضاف إلى «الله» باعتبار أنه سبحانه المجعول في رديفهم فيقال «شركائي» {الذين كنتم تزعمون} أنهم شركاء الله سبحانه؟ والاستفهام إنكاري للتوبيخ والتقريع.

[٢٤] {ثم} بعد هذا السؤال منهم {لم تكن فتنتهم} أي معذرتهم، فإن الفتنة على معان، منها: المعذرة، أو هو على سبيل المجاز، أي: لم تكن نتيجة فتنتهم بالأصنام، إلا التبرؤ منها، كما يقال: «لم يكن درسهم وقضاؤهم إلا رشوة وخيانة» يراد أن عاقبتهما كانت الرشوة والخيانة {إلا أن قالوا والله ربّنا ما كنا مشركين} فيحلفون بالله كذباً أنهم ما كانوا مشركين، كما اعتادوا في الدنيا أن يحلفوا كذباً حينما يقعون في المشاكل.

[٢٥] {انظر} يا رسول الله إلى حلف هؤلاء {كيف كذبوا على أنفسهم} بأنهم ما كانوا مشركين، وهذا أمر يقصد به التعجّب والاستغراب {وضل عنهم ما كانوا يفترون} أي ضلت عنهم

أوثانهم التي كانوا يعبدونها من دون الله، ويفترون الكذب على الله بقولهم: هذه شفعاؤنا عند الله، فلم يجدوها ولم ينتفعوا بها وإنما الأمر لله وحده.

[٢٦] قيل: إن نفراً من مشركي مكة جلسوا إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) وهو يقرأ القرآن، فقال بعضهم لبعض: ما يقول محمد؟ قال: أساطير الأولين مثل ما كنت أحدثكم عن القرون الماضية. فنزلت هذه الآية {ومنهم} أي من الكفار والمشركين {من يستمع إليك} أي إلى كلامك يا رسول الله {و} لكن حيث أنهم أعرضوا عن الحجة بعدما بيّنت لهم {جعلنا على قلوبهم أكنة} هي جمع «كنان» وهي ما ستر شيئاً، فإن الإنسان إذا أعرض عن الحق غشيت على قلبه غشاوة، إذ صار الإعراض له ملكة وعادة، ونسبته إلى الله سبحانه باعتبار أنه سبحانه هو الذي جعل الإنسان هكذا، فإنه علة كل شيء، وإن كان السبب المباشر هو الشخص {أن يفقهوه} أي حتى لا يفقهوه بمعنى لا يفهموه {و} جعلنا {في آذانهم وقراً} «الوقر» هو الثقل في الأذن، فهم كمن لا يسمع، حيث أنهم لايستفيدون من سماعهم {وإن يروا كل آية} ومعجزة خارقة على نبوتك وصدقك {لا يؤمنوا بها} أي بتلك الآيات، إذ قد ران على قلوبهم ماكانوا يعملون {حتّى إذا جاءوك} لايطلبون الحق بل {يجادلونك} ويناقشونك {يقول الذين كفروا إن هذا} أي ما هذا القرآن {إلا أساطير الأولين} «أساطير» جمع أُسطورة، بمعنى الخرافة، من سطر إذا كتب، يعني: ما في القرآن من القصص والأحكام وغيرها ليست إلا أخبار الأقوام السابقة وتُرّهاتهم.

[٢٧] {وهم} أي هؤلاء الكفار الذين سبق ذكرهم {ينهون عنه} أي عن النبي، أو القرآن، يعني: ينهون الناس عن اتباع الرسول (صلى الله عليه وآله) أو القرآن، {وينأون} من «نأى» بمعنى تباعد، أي يتباعدون {عنه} أي عن الرسول أو القرآن، فهم يجمعون بين رذيلتي الكفر والأمر بالمنكر {وإن} أي: وما {يهلكون إلا أنفسهم} فإنهم لا يضرون النبي (صلى الله عليه وآله) بل يضرون أنفسهم بخزي الدنيا وعذاب الآخرة {وما يشعرون} أي لايعلمون أنهم بذلك يُهلكون أنفسهم.

[٢٨] {ولو ترى} يا رسول الله أحوالهم في الآخرة وكيف أنهم يندمون على ما فرّطوا في دار الدنيا {إذ وقفوا على النّار} أي أشرفوا واطلعوا ووقفوا على حافتها لدخولها {فقالوا يا ليتنا نرد} أي يرجعوننا إلى الدنيا {ولا نكذب بآيات ربّنا} دلائله وبراهينه {ونكون من المؤمنين} بالله والرسول وما جاء به. وجملتا «لا نكذب» و«نكون» من مدخول التمني، والتقدير: «يا ليت لنا انتفاء التكذيب، والكون من المؤمنين».

بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٢٩)
وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٠) وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا
بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣١) قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ
حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى
ظُهُورِهِمْ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ (٣٢) وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ
أَفَلاَ تَعْقِلُونَ (٣٣) قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ
اللهِ يَجْحَدُونَ (٣٤) وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ
مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ (٣٥) وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ
اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى
الْهُدَى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٣٦)

[٢٩] {بل بدا لهم} أي ظهر لهؤلاء الكفار الحق جلياً بحيث لا مجال لإخفائهم له {ما كانوا يخفون من قبل} في دار الدنيا حيث كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم. ولعل وجه الإضراب بـ«بل» بيان أنه ليس الأمر على ما قالوه من أنهم: لو رُدّوا إلى الدنيا لآمنوا، فإن التمني الواقع منهم يوم القيامة ليس لأجل كونهم راغبين في الإيمان، بل لأجل خوفهم من العقاب الذي يعاينوه {ولو ردّوا} إلى الدنيا كما تمنوا {لعادوا لما نهوا عنه} أي لرجعوا إلى كفرهم وعصيانهم {وإنهم لكاذبون} في أنهم لو رُدّوا لعملوا صالحاً كما في آية أخرى: (رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ)[٢١]، ولا يخفى أن الإنسان إذا كان ذا طبع عنادي لا ينفك عن طبيعته حتى ولو رأى المشاهد العظيمة من عناده كما هو المشاهد المجرَّب.

[٣٠] وقد كان هؤلاء الكفار ينكرون المعاد وهم في دار الدنيا {وقالوا إن هي} أي ما هي {إلا حياتنا الدنيا} أي الحياة القريبة التي نحن فيها وليس ورائها شيء {وما نحن بمبعوثين} بعد الموت. و«البعث» هو الإرسال والإحياء.

[٣١] {ولو ترى} يا رسول الله أحوال هؤلاء الكفار يوم القيامة {إذ وقفوا على ربهم} أي في معرض خطابه وحسابه، كالشخص الذي يقف عند الملك وهو مجرم، فإنه في حال يأس واضطراب ممّا ينطق الملك في حقه من العقاب. ومن المعلوم أن الله لا يرى، وليس بجسم، ولا له مكان، فالمعنى على سبيل المجاز {قال} ربهم لهم {أليس هذا} اليوم الذي كان يخبر به الأنبياء وكنتم تنكرونه {بالحق} وهو

(٢١) سورة المؤمنون: ١٠٠ و١٠١.

استفهام توبيخ وتقريع {قالوا} مقرّين مذعنين {بلى} هو حق {وربنا} وإنما حلفوا خوفاً، فإن الخائف يردف كلامه بالحلف استمالة لقلب المخوف منه وإظهاراً بأنه يوافق كلام المتكلم {قال} الله سبحانه {فذوقوا العذاب} والمراد بـ«الذوق» ليس الذائقة اللسانية، بل ذوق الجسد فإنه يطلق عليهما {بما كنتم تكفرون} أي بسبب كفركم، وكان السؤال للإهانة والإذلال.

[٣٢] ثم أخبر سبحانه عن حال هؤلاء الكفار بقوله: {قد خسر الذين كذّبوا بلقاء الله} المراد بـ«لقاء الله» جزاؤه وعقابه، كما يقال: فلان لقي عمله، أي جزاء عمله، وإلا فليس لله مكان يرى {حتى إذا جاءتهم الساعة} أي يوم القيامة {بغتة} أي فجأة من «بغت يبغت» بمعنى فاجأ، وإنما ذكر ذلك لأنهم في دار الدنيا كانوا لا يحسبون حساب يوم القيامة حتى يستعدوا له. وهل المراد بـ«الساعة» الموت ـ كما ورد: من مات قامت قيامته(٢٢) ـ حتى يلائم ما بعده، أم المراد القيامة ويكون المراد العذاب الشديد لأن عذاب الآخرة أشد من عذاب القبر، احتمالان.

{قالوا} أي قال هؤلاء الكفار عند معاينة الأهوال والعذاب: {يا حسرتنا} الحسرة شدة الندم يعني: أيتها الحسرة احضري فهذا وقتك {على ما فرطنا فيها} أي على ما تركنا وضيّعنا في الدنيا من أعمارنا ولم نقدم عملاً صالحاً ننتفع به في هذا اليوم {وهم} أي هؤلاء الكفار {يحملون أوزارهم} «الوزر» الثقل، وحيث إن للذنوب ثقلاً تسمى أوزاراً {على ظهورهم} هذا من باب التشبيه، فكما أن من يحمل ثقلاً على ظهره يكون في تعب وحرج، كذلك من يحمل ذنباً، ومنه: «عليه دين» {ألا} للتنبيه {ساء} أي بئس {ما يزرون} أي ما يحملون من وزر، بمعنى: إثم وحمل خطأ.

[٣٣] {وما الحياة الدنيا} أي ليست الحياة القريبة التي اغتر بها الكفار فعملوا لها وتركوا آخرتهم {إلا لعب ولهو} «اللهو» هو ما يُلهي الإنسان عن الجِدّ إلى الهزل، فإن الدنيا ليست إلاّ ألعاباً وملهيات وإنما كانت كذلك لأنه لا حقيقة لأعمالها فهي فانية زائلة، وإذا بالإنسان يرى نفسه ولم يحصّل شيئاً. وغير خافٍ أن ذلك بالنسبة إلى الأعمال التي لا تعقب ثمرة صالحة، وإلاّ فالدنيا مزرعة الآخرة. ونعم متجر العقلاء {وللدار الآخرة} «اللاّم» للتأكيد، أي أن الدار الثانية التي هي الجنة ونعيمها {خير للذين يتقون} معاصي الله، وقد جرد «خير» عن معنى التفضيل، أو بملاحظة أن في الدنيا أيضاً خيراً في الجملة، ثم إنها خير للمتقين، أما غيرهم فالدنيا خير لهم. ولذا ورد: «إن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»(٢٣) {أفلا تعقلون} أيها البشر، فإن من عقل وأدرك علم أن الباقي السرمدي الذي لا يشوبه حزن وهمّ خير من الفاني الممزوج بأنواع المصائب والرزايا.

[٣٤] ثم سلّى سبحانه نبيه على تكذيبهم إياه وعدم انصياعهم لأوامره وإرشاده بقوله: {قد نعلم} يا رسول الله، و«قد» تستعمل في المضارع للتحقيق إلاّ أن الغالب أنها فيه للتقليل {إنه ليحزنك

---

(٢٢) بحار الأنوار: ج٥٨، ص٧.

(٢٣) وسائل الشيعة: ج١٦، ص١٧.

الذي يقولون} مما ينسبونه إليك من أنك شاعر وكاهن ومجنون، وما أشبه ذلك من السباب والاستهزاء الذي كانوا يكيلونه للرسول (صلى الله عليه وآله) {فإنهم} أي الكفار {لا يكذبونك} يا رسول الله في قرارة نفوسهم، لعلمهم أنك صادق، وهذا نوع من التسلية إذ الإنسان إذا علم أن عدوه يُجلّه في قرارة نفسه، كان ذلك سلوة له لما علمه من الاحترام الكامن.

قالوا التقى الأخنس بن شريف وأبو جهل بن هشام فقال الأخنس: يا أبا الحكم أخبرني عن محمد أصادق هو أم كاذب؟ فإنه ليس هاهنا أحد غيري وغيرك يسمع كلامنا فقال أبو جهل: ويحك! والله إن محمداً لصادق وما كذب قط، ولكن إذا ذهب بنو قصي باللواء والحجابة والسقاية والندوة والنبوة فماذا يكون لسائر قريش؟ فنزلت هذه الآية.

وروي عن الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) معنى آخر للآية حاصله: «إنهم لا يكذبونك بحجة ولا يتمكنون من إبطال ما جئت به من برهان»[٢٤].

{ولكن الظالمين} وهم الكفار الذين ظلموا أنفسهم بالكفر، وغيرهم بالمنع عن الإسلام {بآيات الله يجحدون} أي ينكرون آيات الله، كما قال سبحانه (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ)[٢٥].

[٣٥] ثم ذكر سبحانه تسلية للنبي أنه ليس بأول رسول يُكذَّب، بقوله: {ولقد كُذّبت رسلٌ من قبلك} ليس تنكير «الرسل» لأنه ليس هناك رسول يُكذَّب، حتّى ينافي قوله: (يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ)[٢٦]، المفيد لتكذيب كل رسول، وإنما الكلام حيث جرى مجرى التسلية كان يكفي ذلك الإلماع إلى أن هذا الجنس أيضاً في معرض التكذيب والازدراء {فصبروا على ما كذبوا} أي على تكذيب الناس لهم {وأوذوا} إما عطف على «كذبوا» أو على «كذبت» {حتّى أتاهم} أي جاءهم {نصرنا} إياهم على المكذبين، فاصبر أنت يا رسول الله حتّى يأتيك النّصر {ولا مبدّل لكلمات الله} أي لا أحد يقدر على تغيير ما أخبر الله به من نصر الرسل، وإهلاك أعدائهم {ولقد جاءك} يا رسول الله {من نبأ المرسلين} أي بعض أخبار الرسل السّابقين كيف نصرناهم على أعدائهم.

[٣٦] ثمّ بيّن سبحانه أنّ هؤلاء الكفّار لا يؤمنون فلا تتعب نفسك لأجلهم، ولا تحزن. وهنا نكتة بلاغيّة لا بأس ببيانها، وهي أنّ الألفاظ والجمل وضعت للمعاني الخاصّة، لكنّها كثيراً ما تستعمل لإنشاء مفهومها الموضوع له، لكن يراد غير ذلك، كما يستعمل الاستفهام والتعجّب بالنّسبة إليه سبحانه، مع العلم أنه لا يجهل شيئاً، ولا يتعجب من شيء، وإنما استعمال الاستفهام والتعجب بداعي التحريض أو الردع أو نحوهما، وهكذا الخطاب الغليظ أو الرقيق لأحد، قد يراد به المعنى الموضوع له، وقد

(٢٤) بحار الأنوار: ج٩، ص٨٦.

(٢٥) سورة النمل: ١٥.

(٢٦) سورة يس: ٣١.

يراد به داعٍ آخر يُفرغ في مثل هذا القالب، فإنك إذا أردت تنبيه أحد من جيرانك، تغلظ لولدك في الخطاب مع أنك لاتريده بالذات، فمثلاً تقول: «لو أنك ألقيت النفاية بباب الدار لحبستك» فإنك لا تريده بل تُنشئ هذا الكلام بداعي زجر الجار عن القيام بمثل هذا العمل، بل قد يكون عمل يستفاد منه شيء ـ حسب المتعارف ـ يأتي به الإنسان لغرض آخر، كما لو أردت تأديب ولدك لما اقترفه من عمل سيئ، فإنك تعمل إلى خادمك وترفسه برجلك ـ في هدوء ـ قائلاً: لماذا فعلت هذا الفعل، وإنك لا تريده إطلاقاً، وإنما تريد إفهام ولدك أن هذا العمل له هذا الجزاء.

وعلى هذا الوجه جرى الكلام في هذه الآية الكريمة «وإن كان كبر» إنه سبحانه يريد بيان غلظة قلوب الكفار وعنادهم، لكنه يصوغه في أسلوب خطاب للنبي، بأنك توسلت بكل الوسائل من الصعود في السماء، وجعل النفق في الأرض ـ مما يتوسل الناس بهما في مآربهم ـ فإن الكفار لا يؤمنون.. كما أن قصة موسى (عليه السلام) (وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ)(٢٧)، من هذا القبيل أيضاً.

{وإن كان} يا رسول الله {كبر} أي عظم واشتد {عليك إعراضهم} أي إعراض هؤلاء الكفار عن الإسلام {فإن استطعت} أي قدرت {أن تبتغي} أي تطلب وتتخذ {نفقاً} أي سرباً {في الأرض} تشبيه للمعقول بالمحسوس، فكما أن من يريد فتح مدينة، يتخذ الأنفاق من خارج المدينة إلى داخلها ثم يدخلها فجأة ليستولي عليها، فكذلك إن تمكنت أن تصنع مثل ذلك للسيطرة على أرواح هؤلاء وقلوبهم {أو} تبتغي وتطلب {سلّماً} أي مصعداً ومرقاة {في السماء} لتصعد عليه {فتأتيهم بآية} أي حجة وبرهان، غير ما أنزلنا عليك. وجواب «إن» محذوف، أي «فافعل» حذف لدلالة الكلام عليه، كما تقول: «إن تمكنت أن تتصدق» وتحذف قولك: «فافعل».

{ولو شاء الله لجمعهم} أي الناس {على الهدى} بأن يُلجئهم إلى قبول الإيمان، لكنه لا يشاء ذلك لأنه حينئذ يبطل الامتحان والاختبار {فلا تكوننّ من الجاهلين} فإنّ الجاهل هو الّذي يظنّ أنّ بالإمكان العادي اجتماع النّاس كلّهم على أمر، أمّا العاقل المجرّب فيعلم أنّه ما من شيء إلا وفيه خلاف وخصام حتّى البديهيّات الأوليّة كنور الشّمس، فإنّ السفسطائيين ينكرونه، ولم يكن النبيّ (صلى الله عليه وآله) في معرض الجهل حتّى يكون الكلام ردعاً له، وإنما صيغ الكلام لداعي تأنيب الكفّار حتّى أن قصد هدايتهم يكون من أعمال الجاهلين.

وهنا سؤال: كيف تقولون في الآيات النازلة بالنسبة إلى النبي (صلى الله عليه وآله) بمثل هذه المحامل، ولا تقولون في ما أشبهها من الآيات في غيره (صلى الله عليه وآله) بمثل ذلك؟

---

(٢٧) سورة الأعراف: ١٥١.

والجواب: القرينة الخارجية ـ وهي أن النبي معصوم ـ أوجبت ذلك، كما أن القرينة الخارجية أوجبت حمل «الاستفهام» من الله تعالى على معنى آخر، بينما الاستفهام من غيره سبحانه يُحمل على معناه الحقيقي.

إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٣٧) وَقَالُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ (٣٨) وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (٣٩) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤٠) قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤١) بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ (٤٢) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (٤٣) فَلَوْلاَ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٤٤) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (٤٥)

[٣٧] إن الذين يستجيبون لك يا رسول الله هم الأحياء الذين لم يمت الضمير في جوفهم، والذين يكفرون فهم الأموات، فكما أن الميت لايسمع ولا ينتفع كذلك هؤلاء {إنما يستجيب الذين يسمعون} أي يقبل الإيمان من كان حياً يسمع {والموتى} لا سماع لهم حتّى {يبعثهم الله} في الآخرة فيسمعون، إنهم لا علاج لهم، يقول الشاعر:

لقد أسمعت لو ناديت حياً ولكن لا حياة لمن تنادي

{ثمّ} بعد البعث والحساب {إليه يرجعون} أي يرجعون إلى حكمه وقضائه، وهذا لتأكيد أن الكفار أموات، كقول الإمام علي (عليه السلام): «يا أشباه الرجال ولا رجال»(٢٨)، فإن «ولا رجال» لتأكيد الجملة الأولى.

[٣٨] {وقالوا} أي قال الكفار: {لولا} أي هلاّ {نزل عليه آية} أي معجزة خارقة {من ربه} فإنهم بعدما عجزوا عن مقابلة القرآن قالوا للرسول (صلى الله عليه وآله): أنزل علينا مثل عصا موسى وناقة صالح وأشباههما حتى نؤمن بك، فردهم سبحانه بقوله: {قل} يا رسول الله: {إن الله قادر على أن ينزّل آية} كما تقترحون {ولكن أكثرهم لا يعلمون} قدرة الله، بل إنه ليس في إنزالها مصلحة، فإنهم معاندون والمعاند لا تفيده ألف آية، كما لم تفد مع فرعون عصا موسى (عليه السلام) ومع قوم صالح (عليه السلام) الناقة، ولو لم يكن هؤلاء معاندون لكفاهم الكتاب الحكيم. ثمّ إن إتيان آية موسى (عليه السلام) أو ما أشبهها أبعد لقبولهم، إذ القرآن الذي هو على لسانهم ينسبونه إلى السحر، فكيف بالعصا التي ليست من مهنتهم؟!

(٢٨) نهج البلاغة: خطبة ٢٧.

[٣٩] وحيث أن جو هذه السورة حول التوحيد وشؤونه والآيات الكونية وردع الكفّار بمختلف أصنافهم عن عقائدهم الباطلة، بيّن سبحانه بعض مخلوقاته الدالة على وجوده وصفاته الكمالية بقوله: {وما من دابة في الأرض} من «دبّ يدبّ» إذا تحرك، ثم عمّ كل حيوان ولو لم يتحرك، كما أنه يشمل حيوانات البر، لمقابلته بالطائر، وذكر «في الأرض» للتعميم، {ولا طائر يطير بجناحيه} كما أن ذكر «يطير بجناحيه» للتعميم أيضاً، والسر أنه كثيراً ما يُعبّر بمثل هذا التعبير ويراد به العموم مبالغة، فإذا جاء القيد أفاد العموم الاستغراقي {إلا أمم أمثالكم} أيها البشر فإن كل نوع منهما أمة مستقلة وهي مثلكم في الإبداع ولطف الصنع ودقة التركيب {ما فرّطنا} أي ما تركنا {في الكتاب} أي كتاب الكون، فإن الكون كتاب الله والموجودات كلماته، وإنما سميّ الكون كتاباً، لأن الكتاب بمعنى الجمع، من كتب بمعنى جمع، وهذا الكون قد جمع الأشياء فهو كتاب الله التكويني {من شيء} فهذا الكتاب قد اشتمل على جميع الأشياء ومختلف الأصناف، فهل بعد ذلك يطلب أحد دليلاً على وجود الله؟ {ثم} هذه الأمم كلها بعد الممات {إلى ربهم يحشرون} أي يجمعهم يوم القيامة جميعاً، كما قال: (وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ)[٢٩]، فمنه سبحانه بدؤها وإليه عودها.

[٤٠] {والذين كذبوا بآياتنا} أي بدلائلنا الدالة على وجودنا وسائر صفاتنا، بعد هذه الدلائل الواضحة {صم} جمع «أصم» وهو الذي لا يسمع {وبكم} جمع «أبكم» وهو الذي لا يتكلم، فهم كالذي لا يسمع ولايتكلم حتّى يكتسب العلم ويدركه فإن العلم يأتي من الأذن ويخرج من اللسان {في الظلمات} فلا يبصر حتّى يرى الأشياء، فإن الكافر مثل هذا الشخص لأنه قد عطّل جوارحه فلا يدرك شيئاً كما لا يدرك الأعمى الأبكم الأصم شيئاً {من يشأ الله يضلله} أي يتركه ولا يجبره على الهداية حتى يضل الطريق وذلك بعدما بين له الحجة فلم يقبل بل أعرض عنها. وقد تقدم معنى ذلك. {ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم} باللطف الخفي به، كما قال سبحانه: (وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى)[٣٠]، (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا)[٣١].

[٤١] {قل} يا رسول الله لهؤلاء الكفار: {أرأيتكم} أي أخبروني؛ فإن «أرأيت» بمعنى «أخبر»، و«كم» للخطاب، وهو يتغير حسب إفراد المخاطب وتثنيته وجمعه، كقوله سبحانه: (أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ)[٣٢]، {إن أتاكم} أي جاءكم {عذاب الله} بأن نزلت صاعقة أو خُسفت بكم الأرض أو ما أشبههما. كما حدث في الأمم السابقة. {أو أتتكم الساعة} أي القيامة بأهوالها وعذابها {أغير الله تدعون} لكشف العذاب والأهوال عنكم {إن كنتم صادقين} في أن هذه الأصنام آلهة؟!

(٢٩) سورة التكوير: ٦.

(٣٠) سورة محمد: ١٨.

(٣١) سورة العنكبوت: ٧٠.

(٣٢) سورة الإسراء: ٦٣.

وهم بفطرتهم يجيبون بالنفي، وأنهم لا يدعون غير الله، بل يدعون الله وحده، وفي ذلك دلالة على بطلان الأصنام وعبادتها.

[٤٢] ولذا قال سبحانه {بل إياه} أي الله سبحانه {تدعون} وتُقبلون عليه في شدائدكم {فيكشف ما تدعون إليه} أي يرفع الضر الذي دعوتموه من أجله {إن شاء} الكشف عنكم {وتنسون} في وقت الشدة {ما تشركون} من دون الله.

[٤٣] ثم بيّن سبحانه أن الأمم الماضية لما أتتهم الرسل ولم يؤمنوا بهم أصابهم أنواع البلاء، وأن حال هؤلاء كحال أولئك إن لم يؤمنوا {ولقد أرسلنا} رسلنا {إلى أمم من قبلك} يا رسول الله فلم يؤمنوا {فأخذناهم} أي أخذنا تلك الأمم {بالبأساء} أي الفقر والبؤس {والضراء} أي الأوجاع والأسقام {لعلهم يتضرعون} أي كي يتضرعوا إلى الله سبحانه، فإن الإنسان إذا ابتلي بالبلاء كان أقرب إلى الله سبحانه، وفي ذلك لطف بالنسبة إليه.

[٤٤] لكنهم لم يتضرعوا وحتى في هذه الحالة ركبوا العناد وسلكوا سبيل اللُّجاج {فلولا} أي هلاّ ـ وهي كلمة توبيخ ـ {إذ جاءهم} أي جاء تلك الأمم {بأسنا تضرعوا} وخضعوا لله {ولكن قست قلوبهم} بسبب استمرارهم في الكفر والعصيان فلم تجد الهداية إلى قلوبهم سبيلاً {وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون} فرأوا أعمالهم حسنة، ولذا لم يتركوها.

[٤٥] {فلما نسوا ما ذكروا به} أي تركوا ما ذكّرناهم من أوامرنا ولم يعملوا بما دعاهم الرسل إليه {فتحنا عليهم أبواب كل شيء} من النِّعم حيث قد أقبلت الدنيا عليهم من جميع النواحي بعد تلك البأساء والضراء. وذلك لأجل احتمال إفادة التذكير بالنعم حتى يشكروا بارئها والمتفضل بها عليهم {حتى إذا فرحوا بما أوتوا} أي بما أعطاهم الله من النعم واشتغلوا بالتلذذ ولم يقبلوا أمر الرسل، بل صار ذلك سبباً لزيادة طغيانهم وكفرهم {أخذناهم} بالهلاك والنكال {بغتةً} أي فجأةً {فإذا هم مبلسون} من «بلس» إذا تحسّر، أي أنهم متحيّرون آيسون من النجاة.

فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٦) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ (٤٧) قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ (٤٨) وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (٤٩) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٥٠) قُلْ لاَ أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ (٥١) وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٥٢) وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (٥٣)

[٤٦] {فقطع دابر القوم الذين ظلموا} «الدابر» الأصل، أي استُؤصل وقُطع أصل القوم بسبب العذاب {والحمد لله رب العالمين} الذي أهلك الكفار وأراح البلاد والعباد منهم.

[٤٧] ثم احتج الله على الكفار بحجة أخرى تدل على بطلان أصنامهم وأن الأمر لله وحده {قل} يا رسول الله لهؤلاء الكفار الذين يشركون بالله سبحانه: {أرأيتم} أي أخبروني، فقد تقدم أن «أرأيت» بمعنى أخبرني {إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم} أي أذهب بها فصرتم صمّ وعمي {وختم على قلوبكم} أي سلب عقولكم حتى صرتم لا تعقلون، أو المراد الطبع عليها حتى تبتعد عن الخير {من إله غير الله يأتيكم به} أي بذلك الشيء المأخوذ منكم، فإنهم يعترفون بأن الأصنام لا تتمكن من إعادة الأشياء المذكورة {انظر} يا رسول الله {كيف نصرف الآيات} أي نبيّن لهم في القرآن الآيات الدالة على التوحيد، و«تصريف الآيات» توجيهها، من «صرف» إذا أرسل {ثم هم يصدفون} من «صدف» بمعنى أعرض، أي يعرضون عن الحق وعن القائل في الآيات.

[٤٨] {قل} يا رسول الله لهؤلاء الكفار: {أرأيتكم} أي أخبروني {إن أتاكم عذاب الله} بعدما أنذرتكم ولم تؤمنوا {بغتةً} أو مفاجأةً خفية، فإن الفجأة تلازم الخفية {أو جهرةً} علانية بلا فجأة {هل يهلك إلا القوم الظالمون} الكافرون الذين ظلموا أنفسهم، والعاصون، والمراد بالهلاك ما يسبب خسارة الدارين، أما المؤمن لو هلك، فإنه لا يخسر إلاّ الدنيا، ويُعوّض عنها بأنواع الإنعام، وفي هذا الاستفهام إيقاظ وتنبيه وردع لهم من الظلم، فأي أحد يجب أن يهلك إذا أتى العذاب.

[٤٩] {وما نرسل المرسلين إلاّ مبشرين} بالجنة والثّواب لمن آمن وأصلح {ومنذرين} بالنار والعقاب لمن كفر أو عصى {فمن آمن} بما أمر الله الإيمان به {وأصلح} أعماله {فلا خوف عليهم ولا

هم يحزنون} لا في الدنيا ولا في الآخرة، أما في الآخرة فواضح، وأما في الدنيا فلأن الخوف والحزن الحقيقيين ما كانا مع الانقطاع عن العوض والثواب وما أشبهها، وليس المؤمن كذلك فإنه يعلم أن ما يصيبه يعقبه الثواب والأجر. ولذا قال الإمام الحسين (عليه السلام) يوم عاشوراء: «هوّن عليّ ما نزل بي أنه بعين الله»(٣٣)، والارتباط بين هذه الآية والآية السابقة واضح فإن العذاب لما وُعد به الكفار بيّن أن الرسل شأنهم التبشير والإنذار.

[٥٠] {والذين كذّبوا بآياتنا يمسّهم العذاب} أي يصيبهم العذاب {بما كانوا يفسقون} أي بسبب فسقهم وخروجهم من طاعة الله سبحانه. ثم لايخفى أن الغالب تفسير الآيات الدالة على العذاب بعذاب الآخرة، مع أن الإطلاق خلاف ذلك، فإن من أعرض عن ذكره سبحانه يصيبه العذاب في الدنيا وفي الآخرة، كما قال سبحانه: (وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً)(٣٤)، وسببه واضح فإن المناهج التي يتبعها الإنسان مما وضعها غير الله سبحانه لا بد وأن تكون منحرفة، وهذا الانحراف يسبب الفوضى والاستبداد وما أشبه، مما يؤذي الإنسان وينغّص عيشه.

[٥١] إن الكفار كانوا يستعظمون كيف يمكن أن يكون الإنسان رسولاً بدون أن يكون له مال عريض أو علم غيب ذاتي يُعينه في أموره وحوائجه، ويردّ الله سبحانه عليهم ذلك، بأن الرسالة لا ترتبط بهذه الأمور، وإنما هي هداية ونور {قل} يا رسول الله: {لا أقول لكم} أيها الناس {عندي خزائن الله} التي يهب منها لمن يشاء ما يشاء. ومن المعلوم أنه ليس لله سبحانه خزائن بالمعنى المتعارف لدينا، بل خزائنه الأرض والشمس والمعادن وما أشبه، مما تفيض ثروةً ومالاً. وفي الحديث القدسي: «إنما خزائني إذا أردت شيئاً أن أقول له كن فيكون»(٣٥).

والمراد بـ«عدم القول» عدم الوجود، فهو من السالبة بانتفاء الموضوع {ولا} أقول {أعلم الغيب} كما يعلم الله سبحانه، بل إنما أعلم بما يوحي إليّ بإذن الله سبحانه، كما قال عيسى (عليه السلام): (وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ)(٣٦)، وفي الآية الكريمة: (فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً * إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ)(٣٧)، {ولا أقول لكم إني ملك} كما أنكم تتوقعون أن يكون الرسول ملكاً {إن أتبع} أي ليس لي شأن إلاّ أن أتبع، و«إن» بمعنى «ما» {إلاّ ما يوحى إليّ} من الأوامر والنواهي لأجل الإرشاد والإصلاح {قل} يا رسول الله لهم: إن مثل المؤمن والكافر كمثل البصير الذي يبصر الأشياء والأعمى الذي لا يبصر {هل يستوي الأعمى والبصير}؟ كلاّ، إن كل أحد يعلم بأنهما

---

(٣٣) بحار الأنوار: ج٤٥، ص٤٥.

(٣٤) سورة طه: ١٢٥.

(٣٥) بحار الأنوار: ج٤، ص١٣٥.

(٣٦) سورة آل عمران: ٥٠.

(٣٧) سورة الجن: ٢٧ و٢٨.

ليسا متساويين. ولعل تقديم الأعمى لأن الخطاب كان مع الكفار الذين هم بمنزلة الأعمى {أفلا تتفكرون} في الأمر وأن مقام الرسالة لايرتبط بما ذكرتم من الأشياء.

[٥٢] {وأنذر} يا رسول الله {به} أي بالقرآن، فإنه قد تقدّم ذكره بلفظ «ما يوحى إليّ» {الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم} والخوف هنا ليس بمعنى الاحتمال، كقولك: «أخاف أن يُهدم البناء»، بل بمعنى الخوف القطعي، فهو كقولك: «أخاف من الجلاد» وهو يريد القتل. والمراد بـ«الذين يخافون» المعترفون بالبعث، وإنما قد أنذر هؤلاء مع أن الإنذار عام، لأن هؤلاء هم المنتفعون بالإنذار، أما من أعرض فلاينتفع به {ليس لهم من دونه} أي من دون الله تعالى {ولي} يلي أمورهم هناك {ولا شفيع} وليس المراد أن الله يشفع إذ لا معنى لشفاعته، بل المراد أن الشفاعة بيده، فلا يشفع أحد إلاّ بإذنه، كما قال سبحانه: (لاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى)(٣٨)، {لعلهم} أي هؤلاء الذين أنذرتهم {يتقون} معاصي الله، ويأتمرون بأوامره.

[٥٣] إن من يخاف الحساب، أنذره يا رسول الله ولا تطرده من عندك وإن طلب الأشراف ذلك {ولا تطرد} من مجلسك {الذين يدعون ربهم بالغداة} أي صباحاً {والعشي} طرف العصر {يريدون} بالدعاء والضراعة {وجهه} أي ذاته سبحانه خالصاً مخلصاً. وقد ورد أنه مرّ ملأ من قريش على رسول الله (صلى الله عليه وآله) وعنده صهيب وخباب وبلال وعمار وسلمان وغيرهم من ضعفاء المسلمين فقالوا: يا محمد أرضيت بهؤلاء من قومك؟ أفنحن نكون تبعاً لهم؟ أهؤلاء الذين منَّ الله عليهم؟ اطردهم عنك فلعلّك إن طردتهم تبعناك. فنزلت الآية.

وفي بعض التفاسير أنه طعن أولئك الأشراف في سيرة هؤلاء الفقراء وأعمالهم، كي يدفعوا الرسول (صلى الله عليه وآله) لإبعادهم عنه، فرد عليهم سبحانه بقوله: {ما عليك} أي ليس عليك {من حسابهم من شيء} فأنت لاتتحمل تبعة سيرتهم {وما من حسابك} يا رسول الله {عليهم من شيء} فإنهم لا يطالبون بحسابك، بل كلٌّ وعمله، فسيرتهم لو كانت كما يقولون لا تضرك {فتطردهم} فإن الشخص إنما يطرد من تضره سيرته، أما من كان قلبه عامراً بالإيمان وصلاته دائمة طرفي النهار فإن فقره وسيرته لايوجبان طرده ـ لو فرض أن في سيرته ميل ـ {فتكون} بسبب طردهم {من الظالمين} لهم، أو لنفسك، فإن الإنسان إذا ظلم غيره فقد ظلم نفسه أيضاً، وسيقت هذه الجملة مبالغة في ردع من طلب طرد أولئك.

---

(٣٨) سورة الأنبياء: ٢٩.

وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلاَءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ (٥٤) وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٥) وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ (٥٦) قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ قُلْ لاَ أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (٥٧) قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ للهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ (٥٨) قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ (٥٩) وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٦٠)

[٥٤] {وكذلك} أي هكذا {فتنا} أي ابتلينا {بعضهم ببعض} حيث ابتلينا الأشراف والفقراء {ليقولوا} أولئك الأشراف: {أهؤلاء} أي هل هؤلاء الفقراء {منّ الله عليهم من بيننا} حتى عمّهم النبي بلطفه، وجعلهم ندماءه وموضع سره؟ نعم، ليس الإسلام ينظر للناس كما ينظر أهل الدنيا {أليس الله بأعلم بالشاكرين} أنهم شاكرون، والشاكر أفضل من غيره عند الإسلام، وإن كان غيره في نظر الناس شريفاً، فإن الميزان عند الإسلام التقوى (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ)[٣٩].

[٥٥] والإسلام لا يسد الأبواب على العاصي، وإنما يفتح له باب التوبة. وقد ورد أن جماعة جاءوا إلى الرسول (صلى الله عليه وآله) فقالوا: إنا أصبنا ذنوباً عظاماً، فلم يرد عليهم شيئاً فانصرفوا، فنزل قوله تعالى {وإذا جاءك} يا رسول الله {الذين يؤمنون بآياتنا} أي بدلائلنا وبراهيننا {فقل} لهم: {سلام عليكم} أي أنتم في سلام لا في عذاب وعقاب، يُقبل عذركم ويغفر ذنبكم {كتب ربكم على نفسه الرحمة} أي أنه فرض على نفسه ـ حسب حكمته ـ أن يرحم العباد ويشملهم بلطفه وإحسانه {أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة} والمراد بالجهالة هنا ليس الجهل مقابل العلم، بل عدم المبالاة، وإنما سمي بذلك لأن العالم التارك لعلمه هو والجاهل سواء، وكأنه للجهل بالنتائج والعواقب المرتبة على العمل، وإلا فالآية تشمل العمل، بل هو موردها.

{ثم تاب من بعده} أي بعد العمل {وأصلح} أي عمل صالحاً {فأنه} أي الله سبحانه {غفور} لذنبه {رحيم} به. وكان الإتيان بـ«رحيم» بعد «غفور» غالباً، لإفادة الفضل في لطفه وإحسانه.

---

(٣٩) سورة الحجرات: ١٤.

[٥٦] {وكذلك نفصل الآيات} أي كما سبق نفصل الأدلة والبراهين الدالة على التوحيد وسائر شؤون المبدأ والمعاد، ونشرحها ونبيّنها، حتى يتضح سبيل المهتدين {ولتستبين} أي تظهر {سبيل المجرمين} المعاندين، فإن في بيان الحق وضوح الأمرين؛ سبيل المحق وسبيل المبطل. ولفظة «سبيل» مما يجوز التذكير والتأنيث، ولذا قال: «تستبين» بالتأنيث.

[٥٧] ثم أمر سبحانه رسوله بالبراءة مما يعبد المشركون بقوله: {قل} يا رسول الله لهؤلاء المشركين: {إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله} يعني الأصنام التي كانوا يعبدونها، والمراد بـ«من دون الله» ما خلا عبادة الله، فإن النهي أعم من عبادة الأصنام وحدها أو بالاشتراك مع عبادة الله، فإن عبادة الأصنام إنما أتت من هوى النفس لا من دليل عقلي أو منطقي {قل} يا رسول الله لهم: {لا أتّبع أهواءكم} في عبادة الأصنام {قد ضللت إذاً} إذا فعلت أنا ذلك {وما أنا من المهتدين} لو عبدت الأصنام.

[٥٨] {قل} يا رسول الله لهؤلاء الكفار: {إني على بينة} أي أمر واضح بيّن لا غموض فيه {من ربّي} أي أن تلك البيّنة أتتني من جانب الله سبحانه، لا مثلكم أتبع هوى النفس {وكذبتم به} أي بما أنا عليه من الدليل والبيّنة، وقد كان الكفّار يطلبون من الرسول ـ استهزاءً ـ أن ينزل عليهم العذاب الذي يعدهم، كما قال سبحانه: (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ)(٤٠)، فرد عليهم بقوله: {ما عندي} أي ليس باختياري وأمري {ما تستعجلون به} أي الذي تطلبون سرعته {إن الحكم} أي ليس الحكم في باب العذاب {إلاّ لله} فهو وحده {يقص الحق} أي يبيّنه {وهو خير الفاصلين} الذي يفصّل الأمور، فإذا اقتضت المصلحة أتاكم بالعذاب ويُفصل الأمر وتنتهي المشكلة، ومن المعلوم أن إنزال العذاب له مقاييس خاصة، وأوقات محددة، فليس كل من طلب العذاب يُجاب فوراً وإن كان من أكثر الناس إجراماً.

[٥٩] {قل} يا رسول الله لهؤلاء الكفار الذين يطلبون سرعة العذاب {لو أن عندي} أي بأمري وإرادتي {ما تستعجلون به} من إنزال العذاب بكم {لقضي الأمر بيني وبينكم} إذ أهلككم فاستريح منكم، لكن ذلك بإذن الله ومشيئته {والله أعلم بالظالمين} وبمقتضى عمله يقدم العذاب تارة ويؤخره أخرى.

[٦٠] وحيث ذكر علمه سبحانه بالظالمين يأتي السياق ليذكر الكافرين بعلمه سبحانه وقدرته وأعماله، في أنفسهم وفي الآفاق، إنها أقوى الأدلة على وجوده وسائر صفاته الكلامية، وهل من حاجة بعدها إلى الخوارق التي كانوا يقترحونها لإثبات كلامه (صلى الله عليه وآله) {وعنده} أي عند الله سبحانه {مفاتح} جمع «مفتح» بمعنى المفتاح {الغيب} أي ما غاب عن الحواس والمشاعر، فكأن الغيب قد سدّت أبوابه وأقفلت فلا يتمكن الإنسان أن يرى ما ورائها، وليس بيد أحد مفاتيح تلك

---

(٤٠) سورة الحج: ٤٨.

الأبواب ليفتحها ويرى الغيب، وإنما هي بيد الله سبحانه وحده، فهو الذي يعلم الغيب كله ويتمكن أن يفتح تلك الأبواب لمن أراد من خلقه، كما قال: (فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً * إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ)(٤١)، {لا يعلمها} أي لا يدري ما هي تلك المفاتيح {إلاّ هو} أي إلاّ الله سبحانه، وحيث أن كشف الغيب يحتاج إلى العلم بالكشف والقدرة على الكشف، وكان المقام مقام بيان عمله سبحانه، قال سبحانه «لا يعلمها» فلا يقال أن الأنسب أن يقول: «لا يقدر عليها» لا أن يقول «لا يعلمها». فالأرزاق والآجال وما أشبههما، التي تأتي في المستقبل، لا يعلمها إلاّ الله سبحانه {ويعلم ما في البرّ والبحر} المراد بالبر: الأعم من المدن، والبحر: الأعم من الأنهار، بقرينة المقابلة {وما تسقط من ورقة} من أوراق الأشجار {إلاّ يعلمها}، {ولا} من {حبة} كامنة {في ظلمات الأرض} أي جوفها، أو لا تسقط حبة في باطن الأرض مما تزرع أو غيره. وقد كان التقابل بين «ما تسقط من ورقة» وبين «ولا حبة» لطيفاً جداً، حيث أن الأول حركة الحياة إلى الموت، والسقوط الثاني حركة الموت إلى الحياة والارتفاع {ولا} من {رطب ولا يابس} من جميع الأشياء والأصناف. وهذا وإن كان أخص من الموجودات، لأن من الأشياء ما لا يتصف برطوبة لا يبوسة كالعقل، إلاّ أن العموم يشمله الفحوى، وكثيراً ما يقال اللفظ الأخص ويراد الأعم حيث أن الأخص صار مثلاً، كقوله: (إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً)(٤٢)، فإن الأكثر داخل بالفحوى {إلاّ في كتاب مبين} أي إن جميع الأشياء محفوظة عند الله سبحانه في كتاب واضح جليّ، وهو اللّوح المحفوظ، أو المراد بالكتاب علمه الشامل. ولعلّ التعبير بالكتاب لأجل بيان أنه محفوظ لا يزول، كما أن الكتاب كذلك.

---

(٤١) سورة الجن: ٢٧ و٢٨.

(٤٢) سورة التوبة: ٨٠.

وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٦١) وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ (٦٢) ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ أَلاَ لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ (٦٣) قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٤) قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ (٦٥) قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ (٦٦) وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (٦٧) لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٦٨) وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٦٩)

[٦١] {وهو} سبحانه كما يعلم الأشياء كذلك تجري الأشياء بقدرته وإرادته، فأنتم أيها البشر في قبضته وطوع أمره، فإنه {الذي يتوفاكم} أيها البشر {بالليل} أي يقبض أرواحكم عن التصرف، و«التوفي» أخذ الشيء كاملاً ومنه الوفاة، فإن الإنسان إذا نام أخذ الله روحه المتصرفة التي تبصر وتسمع وتذوق وتلمس وتشم، وهذه الآية كقوله سبحانه: (اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا)[٤٣]، وإنما الفرق أن الموت توفٍ بمعنى أتم من التوفي، بمعنى النوم {ويعلم ما جرحتم} أي ما كسبتم وفعلتم، أي عملتم بجوارحكم {بالنهار} وهذا التفصيل خارج مجرى الغالب، وإلا فهو يتوفى بالنهار لمن نام فيه، ويعلم ما جرح الإنسان بالليل لمن عمل فيه {ثم} بعد توفيكم بالليل {يبعثكم} أي يوقظكم وينبهكم من نومكم {فيه} أي في النهار {ليُقضى} أي لينهى {أجل مسمّى} أي أمدكم الذي سماه سبحانه في اللوح المحفوظ، يعني أنه إنما يوقظكم في النهار حتّى لا يموت الإنسان قبل وقته {ثم إليه مرجعكم} بعد تمام المدة وانتهاء الأمد، ترجعون إليه سبحانه في الآخرة، والمراد: إلى حسابه، وإلا فليس له سبحانه محلّ، فإنه منزّه عن الزمان والمكان {ثم ينبئكم} أي يخبركم . بعد رجوعكم إليه . {بما كنتم تعلمون} ليعطي كلّ ذي جزاء جزائه، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

[٦٢] {وهو} سبحانه {القاهر} أي القادر الذي يقهر ويجبر كما يشاء {فوق عباده} أي مستعلٍ عليهم، فإن من يتصرف في الإنسان يكون فوقه رتبة، وليس المراد الفوقية الحقيقية، فإنه منزه عن المكان {ويرسل عليكم حفظة} جمع حافظ، وهم الملائكة الذين يبعثهم الله تعالى لحفظ الإنسان عن

---

(٤٣) سورة الزمر: ٤٣.

العطب، وحفظ أعماله في دفاتر سجلات ليجزي كلاً حسب ما عمل {حتى إذا جاء أحدكم الموت} وصار وقت أن يموت تركه الحافظ له وأسلمه إلى حتفه {توفته} أي قبضت روحه كاملة {رسلنا} أي الملائكة المرسلة لأجل هذه الغاية {وهم لايفرطون} بأن يقدموا أخذ الروح أو يؤخروها، أو يشددوا في النزع أو يخفّفوا، بل يفعلون ما يؤمرون، وإنما أتي بلفظ «رسلنا» جمعاً، لأن لملك الموت أعواناً، كما ثبت من السنة، ولعل في قوله: (الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ)(٤٤)، دلالة عليه.

[٦٣] {ثم} بعدما أخذت الملائكة أرواحهم {ردوا} أي رجعت أرواحهم {إلى الله} أي في المكان المهيأ لهم من قبله سبحانه {مولاهم الحق} أي سيدهم بالحقيقة، لا مثل سيادة الأصنام عليهم {ألا} فلينتبه الناس أن الله {له} وحده {الحكم} في جميع الأمور الكونية، حتى قبض أرواحهم ومحاسبتهم هناك {وهو أسرع الحاسبين} وحسابه سريع لايحتاج إلى ما يحتاج إليه حساب المحاسبين من الوقت ونحوه، فليس هناك بطء في الحساب حتّى يكون للمحاسب مجال واسع لكي يتمّ حسابه.

[٦٤] {قل} يا رسول الله لهؤلاء الكفّار، دلالةً على قدرته سبحانه الكاملة: {من ينجيكم} ويخلصكم {من ظلمات البرّ والبحر} أي من شدائدهما وأهوالهما، فإنّهم يقولون لليوم الشّديد: «يوم مظلم» تشبيهاً، فكما أنّ الإنسان لا يهتدي طريقه في الليل والظلمة، كذلك لايهتدي طريقه في الشّدائد {تدعونه} أي تدعون الله تعالى إذا وقعتم في الشّدّة والظلمة {تضرعاً} ضراعةً واستكانةً بلسانكم {وخفية} وسراً في نفوسكم، فتتوافق الظواهر والبواطن في الضراعة والمسألة لكي ينجيهم الله سبحانه، قائلين: {لئن أنجانا} ربنا {من هذه} الشّدّة والكارثة {لنكوننّ من الشّاكرين} الذين يشكرون نعمائه عليهم معترفين به وبفضله وإحسانه.

[٦٥] {قل} يا رسول الله لهؤلاء: {الله ينجيكم منها} أي من هذه الشدّة {ومن كل كرب} أي يخلّصكم من كلّ غمّ وهمّ {ثمّ أنتم تشركون} به غيره، وترجعون إلى شرككم وعصيانكم، كما قال سبحانه: (فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ)(٤٥).

[٦٦] {قل} يا رسول الله لهؤلاء الكفار: الله {هو القادر على أن يبعث} أي يُرسل {عليكم عذاباً من فوقكم} كالصواعق {أو من تحت أرجلكم} كالخسف {أو يلبسكم} من «لبس عليه الأمر» إذا خلط بعضه ببعض أي يخلطكم {شيعاً} جمع «شيعة» أي فرقاً، مختلفي الأهواء لا تكونون أمة واحدة، بل أحزاباً وأهواءً {ويذيق بعضكم بأس بعض} فهم في عداءٍ مستمر وحروب دائمة، وإنما ينسب ذلك إليه سبحانه، لأنه يكلهم إلى أمرهم بعد أن أعرضوا عن طريقه، وتركوا منهاجه {انظر} يا رسول الله. والمراد بالنظر التأمل والتفكر {كيف نصرف الآيات} نردّد الدلائل على التوحيد ونكررها مرة بعد مرة {لعلهم يفقهون} أي يفهموا الحق، ويذعنوا للخالق ويتجنبوا الكفر والباطل.

(٤٤) سورة النساء: ٩٨.

(٤٥) سورة العنكبوت: ٦٦.

[٦٧] {وكذب به} أي بما نصرّف من الآيات {قومك} يا رسول الله، والمراد بهم إما قريش، وإما العرب، وإما الناس المبعوث إليهم بصورة عامة، والمراد بالتكذيب: تكذيب أغلبهم لا جميعهم، لوضوح إيمان بعض من كلّ من الطوائف الثلاث به (صلى الله عليه وآله) حين نزول الآية {وهو الحق} أي ما نصرفه من الآيات حق لا مرية فيه {قل} يا رسول الله لهؤلاء الكفار: {لست عليكم بوكيل} أي موكل إليّ أمركم حتى يضرني تكذيبكم، بل أنا مبلّغ، وقد بلغت ما أُمرت بتبليغه.

[٦٨] ثم بيّن سبحانه أن ما أخبر به الرسول من وعيد المكذبين بشر الدنيا والآخرة لا بد وأن يظهر، وهناك يعلم المكذبون أنهم خسروا، وأن تكذيبهم عاد بالوبال عليهم {لكل نبأ} أي لكل خبر {مستقر} أي محل استقرار يظهر هناك صدقه، فما كان في الدنيا يظهر أثره في الدنيا وما كان في الآخرة يظهر أثره في الآخرة {وسوف تعلمون} أيها المكذبون عاقبة أمركم.

[٦٩] إن أول حركة لابد وأن يختلط المؤمنون بها والمناوئون لها، ولا بد وأن يكون ضعاف النفوس من المؤمنين يكتسبون من المعاندين بعض الأفكار المعادية، ولا أقل من أن يجبنوا عن الاستمرار والتظاهر، ولذا فمن اللازم أن يجنّب القادة أتباعهم عن الاختلاط خصوصاً حالة التهجم من المعاندين {وإذا رأيت} يا رسول الله {الذين يخوضون في آياتنا} خوض المناقشة والاستهزاء، والخطاب وإن كان موجهاً إلى الرسول (صلى الله عليه وآله) إلا أنه عام لجميع المسلمين {فأعرض عنهم} أي فاتركهم ولا تجالسهم {حتّى يخوضوا في حديث غيره} أي غير ما خاضوا فيه أولاً، بأن يتكلموا في سائر المواضيع فلا بأس حينئذ من مجالستهم والتكلم معهم {وإما ينسيك الشيطان} بأن نسي المسلم وجلس مع الخائضين في آيات الله، والجملة شرطية، أي: وإن أنساك، و«ما» زائدة، ومن المعلوم أن الشرط لا ينافي العصمة، فإن الجملة الشرطية تأتي حتّى مع استحالة طرفيها نحو: (إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ)[٤٦]، {فلا تقعد بعد الذكرى} أي بعد التذكر، لكون مجالستهم محرمة منهي عنها {مع القوم الظالمين} الذين يخوضون في الآيات.

---

(٤٦) سورة الزخرف: ٨٢.

وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٧٠) وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَ يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧١) قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَا لاَ يَنْفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٧٢) وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٣) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (٧٤)

[٧٠] {وما على الذين يتقون} أي هل على المؤمنين المتقين {من حسابهم} أي حساب الكفار الخائضين في آيات الله {من شيء}؟ فإنهم ليسوا بمسؤولين عن خوضهم في الآيات {ولكن} قيامهم عن المجالس إذا خاضوا {ذكرى} أي تذكير للخائضين بأنهم يعملون عملاً سيّئاً، وإنما قال «ذكرى» لأن الخائض يعلم سوء فعله في قرارة نفسه، لكنه يغفل غالباً حين الخوض، فأمر المسلم أن يقوم من مجلسه ليتذكر {لعلهم} أي لكي ينتهي الخائضون و {يتقون} ويتورعون عن الخوض.

روي عن الإمام الباقر (عليه السلام) أنه قال: لما نزلت «فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين» قال المسلمون: كيف نصنع إن كان كلما استهزأ المشركون بالقرآن قمنا وتركناهم فلا ندخل المسجد الحرام ولا نطوف بالبيت الحرام؟ فأنزل الله سبحانه: «وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء» أمرهم بتذكيرهم وتبصيرهم ما استطاعوا(٤٧).

[٧١] {وذر} أي اترك يا رسول الله {الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً} المراد من «دينهم»: الذي يتدينون به من عبادة الأصنام، والمسيحية واليهودية وما أشبه، والمراد باتخاذه لعباً ولهواً: أنهم كالأطفال الذين يتخذون آلةً للعب واللهو فلا علاقة لهم بها إلا علاقة التلاعب، لا أنه دين وصل إلى أعماق قلوبهم وأخذ يوجه حياتهم، وأما دينهم الذي يجب أن يتدينوا به ـ أي الإسلام ـ ونسبته إليهم لأجل وجوب اتخاذه ديناً، واتخاذه لعباً ولهواً استهزاؤهم به كأنه لعب ولهو {وغرتهم الحياة الدنيا} زاعمين أنه ليس ورائها شيء، وشغلتهم الدنيا عن الدين {وذكر} يا رسول الله هؤلاء الكفار {به} أي بالدين {أن تبسل} من «بسل» بمعنى استسلم، أي لكي لا تُسْلَم {نفس} للهلكة {بما كسبت} أي بسبب عملها، فإنك إن ذكّرت لعلها تعود إلى الرشد وتنقذ من الهلكة حيث {ليس لها} أي للنفس {من دون

(٤٧) مستدرك الوسائل: ج١٢، ص٣١٢.

الله} أي غير الله {ولي} ناصر ينصرها {ولا شفيع} يشفع لها، فإن الشفاعة بيد الله وحده {وإن تعدل كل عدل} أي تفدي بكل ما يمكن جعله فدية، لتنقذ نفسها من العذاب {لا يؤخذ منها} إذ ليس الميزان هناك إلا العمل وحده {أولئك} الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً هم {الذين أبسلوا بما كسبوا} أي أهلكوا «بـ» سبب «ما كسبوا» من الأعمال والعقائد الباطلة {لهم شراب من حميم} أي: الماء الذي يشربون إنما هو من حميم جهنم، وهو الماء المغلي الحار {وعذاب أليم} أي مؤلم موجع {بما كانوا يكفرون} أي بسبب كفرهم.

[٧٢] {قل} يا رسول الله لهؤلاء الكفار: {أندعو من دون الله ما لا ينفعنا} أي هل ندعو الأصنام التي لا تنفعنا إن عبدناها {ولا يضرنا} إن تركنا عبادتها {ونرد على أعقابنا} أي نرجع القهقرى، فإن من أتى إلى مكان ثم رجع إلى محله الأول كان خاسراً، و«الأعقاب» جمع «عقب» {بعد إذ هدانا الله} إلى دينه وصراطه {كالذي استهوته} أي استغوته {الشياطين} أي الغيلان {في الأرض} أي البيداء، بأن أخرجته الشياطين من الجادة إلى المهلكة {حيران} لا يدري أيتبع أصحابه أم يتبع الشياطين {له} أي لهذا الذي استهوته الشياطين {أصحاب يدعونه إلى الهدى} إلى الجادة، وأن لا يتبع الشياطين، قائلين له: {ائتنا} أي جئنا وكن معنا. فإن قسماً من الغول ـ وهم سحرة الجن ـ يكونون في الصحراء، يؤذون بعض المارة، فإذا رأى الشخص جماعة منهم يستهوونه قائلين له: من هنا الجادة ـ ويدلّونه إلى المفاوز المهلكة ـ فهو يتحير بين أن يسير مع هذه الجماعة التي تصبغ نفسها بصبغة أدلاء الطريق وأنها من أهل البادية تعرف الطريق الموصل من غيره، أم يسير مع رفاقه الذين خرج معهم، حيث أنهم رفاقه، لكنهم ـ بزعمه ـ يمشون على غير الطريق ويصيبهم العطب أخيراً. وهناك قسم من الناس ينكرون الجن والغول والشيطان، لكنه من ضيق الأفق، فإن العلمين القديم والحديث أيّدا الدين والقصص المؤكدة لوجود ذلك(٤٨).

{قل} يا رسول الله: {إن هدى الله هو الهدى} الذي ينبغي للإنسان أن يتبعه ويترك غيره {وأمرنا} أي أمرنا الله وأرشدنا العقل {لنسلم لرب العالمين} في جميع شؤوننا.

[٧٣] {و} أمرنا {أن أقيموا الصلاة} أي بإقامة الصلاة، فإن حذف حرف الجر، مع أن «وأن» مطرد شائع، كما قال ابن مالك:

والخوف مع أن وإن يطرد   مع أمن لبس كعجبت أن يدو

{واتقوه} أي احذروا عقاب الله تعالى {وهو الذي إليه تحشرون} أي تجمعون يوم القيامة ليحاسبكم على ما عملتم من خير وشر.

(٤٨) أنظر كتاب "على حافة العالم الأثيري" لفريد وجدي، مادة "اسرتزم".

[٧٤] {وهو الذي خلق السماوات والأرض} والمراد بالسماوات: إما الأجرام هناك، أو المدارات للكواكب {بالحق} أي ليس بالباطل فإن من يصنع شيئاً قد يصنعه عبثاً وباطلاً وقد يصنعه لغاية وحكمة، فمعنى بالحق: أن الخلق ليس عبثاً، كما قال سبحانه: (مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ)(٤٩)، {ويوم يقول} سبحانه لشيء {كن} واخرج من العدم إلى الوجود {فيكون} ويوجد {قوله الحق} الظاهر أنه العامل في «يوم» أي أن قوله تعالى يكون ويتحقق في أي يوم قال لشيء «كن» فهو سبحانه خلقه بالحق، وقوله حق، أي متحقق ثابت لا خلف فيه، وليس كأقوال من تذهب أقواله باطلة. {وله الملك يوم ينفخ في الصور} الصور هو الآلة التي ينفخ فيها لأجل هلاك الناس جميعاً، وهو في آخر يوم من أيام الدنيا، أو لأجل أحيائهم جميعاً، وهو في أول يوم من أيام الآخرة، يعني أنه سبحانه الملك الوحيد الذي لا يوجد ملك غيره، في ذلك اليوم. والفقرات الثلاثة في الآية لبيان الأحوال الثلاثة، الخلق للأشياء، والتصرف في الكون بما يشاء الله، وكون المعادلة له سبحانه، وهو {عالم الغيب} أي يعلم ما غاب عن الحواس، لعدم إدراك الحواس له، أو لكونه من الأمور المستقلة {والشهادة} أي ما يشاهده الناس، وأتى بهذه الجملة هنا، ليتناسق العلم مع القدرة، {وهو الحكيم} في أفعاله {الخبير} بالأشياء، فلا يعمل شيئاً اعتباطاً وعبثاً

---

(٤٩) سورة آل عمران: ١٩٢.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ (٧٥)
وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٦) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ
رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي
فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٨) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا
رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٩) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ
السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٨٠) وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللهِ وَقَدْ هَدَانِ
وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ (٨١) وَكَيْفَ
أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ
بِالأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٢)

[٧٥] وبعد ما بيّن سبحانه الأدلة حول التوحيد، أتى بقصة إبراهيم (عليه السلام) الذي كان يدعو إلى التوحيد، ليمثل الأدلة في قصة حوارية جذابة {و} اذكر يا رسول الله {إذ قال إبراهيم لأبيه آزر} والمراد بالأب هنا العم، كما ورد، فإن العرب تسمي العم أباً، كما تسمي الخالة أماً، وقد ورد في زيارة الشهيد على الأكبر (عليه السلام)، «السلام عليك يا بن الحسن والحسين» {أتتخذ أصناماً آلهة} على وجه الاستنكار والتوبيخ، أي كيف تعبد الأصنام وتجعلها إلهاً من دون الله؟ {إني أراك وقومك في ضلال مبين} أي واضح، فإن الإله يجب أن يكون خالقاً رازقاً فكيف تكون الأصنام آلهة؟

[٧٦] {وكذلك} أي بمثل هذه الفطرة المستقيمة التي رأى بها إبراهيم بطلان عبادة الأصنام {نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض} أي آثار الملك الموجودة في السماوات والأرض من الشمس والقمر والنجوم والجبال والبحار والأشجار والدواب وغيرها، مما تدل كلها على وجود إله حكيم عليم خالق قادر، وإنما نسب الإراءة إلى نفسه تعالى لأنه هو الذي فتق بصيرة إبراهيم (عليه السلام) للتأمل في الآيات الكونية. وفي الأحاديث أنه (عليه السلام) كان يرى أغوار الأرض وآفاق السماء فقد كشف عن عينه الحجاب وكان يرى ما لا يدركه البصر الإنساني.

{وليكون من الموقنين} أي المتيقنين بأن الله سبحانه هو الخالق والإله، أريناه الملكوت، فجملة «وليكون... الخ» مستأنفة.

[٧٧] إن إبراهيم (عليه السلام) اصطدم بأصناف ثلاثة يعبدون من دون الله الكواكب، فكان بعضهم يعبدون «الزهرة» وبعضهم يعبد «القمر» وبعضهم يعبد «الشمس» فأراد الاحتجاج عليهم فلما جن عليه الليل رأى الزهرة فقال لعُبّادها مستنكراً: هل هذا ربي؟ ثم رد عليهم بأنه آفل ذاهب متحرك،

وهذا من شأن المخلوق لا الخالق فإن الخالق لا يتغير ولا يتحرك، وبعدما طلع القمر، قال لعباده على وجه الاستنكار: هل هذا ربي؟ ثم أبطل ألوهيته بما سبق وبيّن أن إلهه هو الله وحده لا شريك له. {فلما جن} أي أظلم {عليه الليل} وستر بظلامه كل شيء {رأى} إبراهيم (عليه السلام) {كوكباً} وجماعة يعبدونه {قال} مستنكراً عليهم: هل {هذا ربي}؟ {فلما أفل} وغرب النجم {قال} إبراهيم: {لا أحب الآفلين} أي لا أحب أن أتخذ الشيء الذي يغرب إلهاً.

[٧٨] {فلمّا رأى} إبراهيم (عليه السلام) {القمر بازغاً} أي طالعاً منيراً وجماعة يعبدونه {قال} مستنكراً عليهم: هل {هذا ربّي}؟ {فلمّا أفل} وغرب القمر {قال} إبراهيم على سبيل التّعريض بأولئك {لئن لم يهدني ربّي} إلى الطّريق المستقيم {لأكوننّ من القوم الضّالّين} الذين ضلّوا الطّريق، واتّخذوا آلهة باطلة.

[٧٩] {فلمّا} أصبح إبراهيم (عليه السلام) و {رأى الشّمس بازغة} طالعة وجماعة يعبدونها {قال} مستنكراً عملهم طاعناً في حجّتهم: هل {هذا ربّي هذا أكبر} ؟، فكأنّهم كانوا يستدلّون بكبرها على أنها الرّب دون سواها {فلمّا أفلت} الشّمس وغربت {قال} إبراهيم (عليه السلام): {يا قوم} العبّاد لغير الله تعالى {إنّي بريء ممّا تشركون} أي ما تجعلونه من الكواكب شريكاً لله سبحانه.

[٨٠] {إني وجهت وجهي} والمراد بالوجه الذات، لكن حيث أن الإنسان حينما يخلص لشيء ويريد استقباله، يوجّه وجهه إليه، واستعمل الوجه في الذات مجازاً {للذي فطر السماوات والأرض} أي خلقها وأوجدها {حنيفاً} أي مائلاً عن الشرك إلى الإخلاص {وما أنا من المشركين} الذين يشركون بالله غيره.

[٨١] ولما جادل إبراهيم حول الأصنام والكواكب التي يعبدها قومه، فشي أمره فجاء إليه الناس يحاجّونه {وحاجّه قومه} أي خاصموه وجادلوه في باب الألوهية {قال} إبراهيم {أتحاجوني في الله} أي تجادلونني بالنسبة إلى الله تعالى {وقد هدان} إلى الحق بلطفه وإحسانه {ولا أخاف ما تشركون به} أي لا أخاف من آلهتكم أن يسببوا لي ضرراً، فإنه ليس الصنم والنجم يضران الإنسان {إلا أن يشاء ربي شيئاً} أي ضرراً بي، والاستثناء منقطع، وقد مر سابقاً أن هذه الاستثناءات إنما هي لأجل إفادة تمام الطلب بعد جعل المستثنى منه الإطلاق، فالأصل مثلاً، ولا أخاف ضرراً إلا من الله سبحانه.

ولست أعلم ما يشاء ربي من ضرري أو نفعي بل {وسع ربي كل شيء علماً} أي سبحانه المحيط بالأشياء بعلمه الواسع واطلاعه الشامل {أفلا تتذكرون} أيها المشركون وتتدبرون لتعرفوا أن الأمر كما قلت لكم.

[٨٢] {وكيف أخاف} أنا المعتقد بالله سبحانه الضرر من قبل {ما أشركتم} من الأصنام والنجوم وهي لا تملك شيئاً من الضرر والنفع {و} الحال أنكم {لا تخافون أنكم أشركتم بالله} الذي بيده كل ضرر ونفع {ما لم ينزل به عليكم سلطاناً} أي جعلتم النجوم والأصنام شركاء لله والتي لم يدل

دليل من قبل الله سبحانه على صحتها، فإن «ما» موصولة مصداقها «الأصنام والنجوم» {فأي الفريقين} نحن وأنتم {أحق بالأمن} بأن لا يخاف الضرر {إن كنتم تعلمون} أي تستعملون عقولكم وعلومكم فتميزون الحق من الباطل؟

الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٨٣) وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٤) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاً هَدَيْنَا وَنُوحاً هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٥) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٨٦) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلاً فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (٨٧) وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٨٨) ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٩) أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاَءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (٩٠) أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ (٩١)

[٨٣] ثم بيّن سبحانه مَن له الأمن بقوله: {الذين آمنوا} بالله تعالى {ولم يلبسوا} أي لم يخلطوا {إيمانهم بظلم} بأن لم يشركوا فإن الشرك ظلم، كما قال سبحانه: (لاَ تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)(٥٠) {أولئك لهم الأمن} فإنهم لا يخافون عقاب الآخرة، ولا ضرر الدنيا بلا عوض {وهم مهتدون} أي مهديون إلى الحق. وهذه الآية وإن كان موردها قصة إبراهيم والإيمان والشرك إلا أنها عامة تشمل كل إيمان لم يُلبس بظلم، ولذا ورد في مصداقها الولاية لأهل البيت (عليهم السلام)(٥١).

[٨٤] {وتلك} الحجة التي احتج بها إبراهيم (عليه السلام) في ما سبق {حجتنا} أي الأدلة التي {آتيناها إبراهيم} أعطيناها لإبراهيم (عليه السلام)، ولقنّاه إياها {على قومه} المشركين حتى تمكن من إيرادها عليهم وأن يغلبهم {نرفع درجات من نشاء} كما رفعنا إبراهيم (عليه السلام) درجات حيث كان مؤمناً موحداً مجاهداً {إن ربك حكيم عليم} فبحسب حكمته البالغة يرفع الدرجات، وبحسب علمه الشامل يعلم الأشياء.

[٨٥] {ووهبنا له} أي لإبراهيم (عليه السلام) {إسحاق ويعقوب} إسحاق هو ابن إبراهيم من سارة، ويعقوب ابن اسحق (عليهم السلام) ، ولم يذكر إسماعيل وهو ابنه من هاجر لإرادة ذكره مستقلاً حتى يظهر له من الشأن ما لايظهر لو أدرج في جملة «وهبنا» وقد ذكر سبحانه الشجرة النبوية من إبراهيم (عليه السلام) ومن نوح (عليه السلام) فلا يفوت ذكره حيث يذكرون {كلاًّ} من الثلاثة {هدينا} إلى الحق والى صراط مستقيم {ونوحاً هدينا من قبل} هؤلاء {ومن ذريته} أي من ذرية

(٥٠) سورة لقمان: ١٤.

(٥١) بحار الأنوار: ج٣٦، ص١١٤.

إبراهيم، أو من ذرية نوح (عليه السلام) أو المراد كلاً منهما، فإنه يجوز ذلك بإرجاع الضمير إلى كل واحد، كما قال سبحانه: (فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ)(٥٢) {داود وسليمان} وهو ابن داود {وأيوب ويوسف} ابن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم {وموسى} بن عمران {وهارون} أخو موسى (عليه السلام) {وكذلك} أي هكذا يجعل النبوة في ذريته، تكريماً له {نجزي المحسنين} الذين يحسنون في أعمالهم، فإنا نكرمهم بما يستحقون.

[٨٦] {وزكريا ويحيى} ابن زكريا {وعيسى} ابن مريم {وإلياس كلٌّ من الصالحين} أي أن كل واحد منهم من الذين أصلحوا.

[٨٧] {وإسماعيل} ابن إبراهيم (عليه السلام) جد النبي (صلى الله عليه وآله) ومن المحتمل أن يراد به إسماعيل صادق الوعد الذي أشير إليه في قوله سبحانه: (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ)(٥٣)، {واليسع ويونس} ابن متّى صاحب الحوت {ولوطاً} والكلام في «اللام» في «اليسع»، والمنصرف وغير المنصرف من الأسماء مرتبط بالمفصلات {وكلاًّ} أي كل واحد منهم {فضّلنا على العالمين} أي عالم زمانهم، فإن كل نبي كان أفضل من جميع الناس، باستثناء النبي الذي في عهده، فلوط كان في عهد إبراهيم ولم يكن أفضل منه.

[٨٨] {و} كذلك فضلنا جماعة {من آبائهم} أي من آباء هؤلاء الأنبياء {وذرياتهم} أي أولاد هؤلاء الأنبياء {وإخوانهم} أي إخوان هؤلاء الأنبياء {واجتبيناهم} أي اصطفيناهم واخترناهم للرسالة {وهديناهم} إلى الحق، وذلك لا يلازم سبق الضلالة، كما لا يخفى {إلى صراط مستقيم} في كل شيء؛ العقيدة والسلوك والقول.

[٨٩] {ذلك} الهدى الذي هدينا به الأنبياء {هدى الله} وإرشاده الذي يأتي بأكمل السعادة وأوفر الخير {يهدي به من يشاء من عباده}، والمراد إما الهدى الخالص، ومن المعلوم أنه لا يلزم في الحكمة بالنسبة إلى كل أحد، وإما الهدى العام وذلك وإن لزم بالنسبة إلى كل أحد لكن المراد هنا الإيصال إلى المطلوب لا إراءة الطريق، أو يقال: إن الذي دلّ عليه الدليل أن العقاب لا يجوز بلا بيان، أما الهداية فلا دليل عقلي على إيجابها بالنسبة إلى كل أحد، نعم في لزوم خروج الخلق عن العبث يلزم الإرشاد في الجملة {ولو أشركوا} أي لو أشرك هؤلاء الأنبياء {لحبط} أي لبطل {عنهم} فإن الحبط لما أُشرب معنى الزوال والذهاب عدّي بـ«عن» {ما كانوا يعملون} من الأعمال السابقة على الشرك. ثم إن الآية في مقام بيان أن الشرك موجب لحبط الأعمال مهما كانت سوابق الشرك، إذ من المعلوم الضروري

---

(٥٢) سورة البقرة: ٢٦٠.

(٥٣) سورة مريم: ٥٥.

عدم شرك الأنبياء، فإن الشرط يأتي حتّى في مستحيل الطرفين، كقوله: (قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ)(٥٤)، ومن هذا القبيل أيضاً قوله: (لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ)(٥٥).

[٩٠] {أولئك} الذين ذكرناهم من الأنبياء (عليهم السلام)، هم {الذين آتيناهم} أي أعطيناهم {الكتاب} المراد به الجنس {والحكم} أي منصب الحكم بين الناس، فإن هذا المنصب ليس إلاّ لله ولمن أعطاه إياه {والنبوة} حيث كانوا أنبياء، وذكر النبوة بعد الكتاب، لدفع توهم أن إعطاء الكتاب ليس من قبيل إعطاء الكتاب للاسم، كقوله سبحانه: (خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ)(٥٦)، {فإن يكفر بها} أي بالكتاب والحكم والنبوة {هؤلاء} الكفار الذين جحدوا نبوتك يا رسول الله {فقد وكلنا بها} أي بالإيمان بها، والمراد إيكال أمر دعاية النبوة والإيمان بها، والجهاد في سبيلها، كالوكيل الذي يراعي أمور الموكل {قوماً ليسوا بها بكافرين} فهم يقومون بواجب أمر النبوة خير قيام.

[٩١] {أولئك} الأنبياء (عليهم السلام) الذين سبق ذكرهم {الذين هدى الله} أي هداهم الله، والتكرار هنا مقدمةً لقوله سبحانه {فبهداهم} يا رسول الله {اقتده} في أسلوب الدعوة والصبر على الأذى والاهتمام بالأمر، وهذا كتسلية للرسول (صلى الله عليه وآله) وإشارة إلى أن الأنبياء السابقين ابتلوا بما ابتلي به، بالإضافة إلى أن الاقتداء بهم في هدى الله سبحانه، لا فيما هو من عند أنفسهم، حتى يقال: كيف يؤمن النبي (صلى الله عليه وآله) بالإقتداء بمن هو دونه في الفضيلة.

إنه قيام بالوظيفة لأمر الله سبحانه ولحسابه الخاص، فالأجر منه وحده {قل} يا رسول الله لمن تبلغهم: {لا أسألكم عليه أجراً} أي لا أطلب منكم على تبليغ الرسالة وأداء الوحي ثمناً وأجرة {إن هو} أي ما تبليغ الوحي {إلاّ ذكرى} أي تذكيراً {للعالمين} الذين هم في زماني وبعد زماني. وكونه تذكيراً باعتبار ما أودع في الإنسان من الفطرة الدالة على توحيده سبحانه.

وهنا سؤال: كيف يمكن الجمع بين هذه الآية وبين قوله: (لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى)(٥٧).

والجواب: إن إطلاق الأجر على المودة مجاز، وقد كان إرجاع الناس إليهم لصالح الناس، حيث إنهم الهداة المصلحون.

(٥٤) سورة الزخرف: ٨٢.

(٥٥) سورة الزمر: ٦٦.

(٥٦) سورة البقرة: ٦٤.

(٥٧) سورة الشورى: ٢٤.

وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (٩٢) وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩٣) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلاَئِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (٩٤) وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٩٥)

[٩٢] وحيث ذكر سبحانه أنه أعطى الأنبياء الكتاب، ردّ على من زعم أنه سبحانه لم ينزل كتاباً. فقد ورد أن حبراً من أحبار اليهود جاء إلى النبي (صلى الله عليه وآله) فقال له النبي: أنشدك بالذي أنزل التوراة على موسى أما تجد في التوراة أن الله سبحانه يبغض الحبر السمين . وكان اليهودي سميناً . فغضب وقال: ما أنزل الله على بشر من شيء. فقال له أصحابه: ويحك ولا موسى؟ فأنزل الله هذه الآية[٥٨] {وما قدروا الله حق قدره} أي ما عظموه سبحانه حق تعظيمه الذي يليق به {إذ} نسبوا إليه الكذب فـ {قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء} أي لم ينزل على رسول كتاباً من السماء، كما قال ذلك اليهودي. إن معنى عدم إرسال الرسل، وإنزال الكتب أن الله خلق الخلق عبثاً واعتباطاً. ومن المعلوم أن نسبة العبث إلى شخص عادي موجب لإهانته وعدم تقديره، فكيف بالله الحكيم العليم؟! {قل} يا رسول الله لإبطال كلامهم فـ {من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى} (عليه السلام) أليست التوراة من إنزال الله تعالى، وإنما ذكرها لكون طرف الكلام يهودياً {نوراً وهدىً} أي في حال كون كتابه (عليه السلام) نور يهدي الناس إلى مناهج الحياة الصحيحة، وهداية {للناس} إلى الحق {تجعلونه} أي تجعلون ذلك الكتاب {قراطيس} أي تكتبونه، وهذا لزيادة التأكيد، أي: فكيف تنكرون ما تلقيتموه أنتم بالقبول، وكنتم تكتبونه في قراطيس باعتبار أنه كتاب سماوي منزل من عند الله سبحانه؟ {تبدونها} أي تظهرون بعضها، حيث كانوا يكتبون بعض الأحكام الموجودة في التوراة في أوراق ويعطونها بيد الناس {وتخفون كثيراً} من التوراة لأجل كونها خطراً على أموالهم أو جاههم، أو فيه دلالة على الرسول (صلى الله عليه وآله).

---

(٥٨) بحار الأنوار: ج٩، ص٨٩.

{وعلمتم} أيها اليهود ببركة التوراة المنزلة على موسى {ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم} فإنكم لولا كتاب الله المنزل لم تكونوا تعلمون شيئاً، فكيف تنكرون إنزال الله الكتاب، وتقولون: «ما أنزل الله على بشر من شيء»؟ {قل} يا رسول الله: {الله} أنزل الكتاب على موسى {ثم ذرهم} أي دعهم {في خوضهم يلعبون} فهم وما خاضوا فيه من الباطل والكذب، إنهم يلعبون بالدين، فذرهم وما هم فيه

[٩٣] {و} كما أنزلنا الكتاب على موسى كذلك {هذا} القرآن {كتاب أنزلناه} إليك يا رسول الله {مبارك} يوجب البركة والسعادة {مصدق} الكتاب {الذي بين يديه} أي قبله، من التوراة والإنجيل وسائر الكتب السماوية، ومن المعلوم أن تصديق أصل الكتاب لايلازم تصديق التحريفات التي طرأت عليه، {ولتنذر} يا رسول الله {أم القرى} أي مكة، وإنما سميت بها لأن الأرض دحيت من تحتها {ومن حولها} من سائر أهل الأرض {والذين يؤمنون بالآخرة} من أهل الكتاب وغيرهم {يؤمنون به} أي بالقرآن المنزل عليك، فإن الإيمان بالآخرة يوجب خوفاً في القلب، ينبعث منه اتباع الحق أينما وجد، وفيه تعريض بمن لايؤمن من أهل الكتاب، فإنه غير مؤمن بالآخرة {وهم على صلاتهم يحافظون} فيؤدونها لأوقاتها، فمن يترك الصلاة ليس بمؤمن بالآخرة والقرآن، وإن ادّعى الإيمان.

[٩٤] وحيث كان الكلام حول الوحي، ومن قال بعدم الوحي إطلاقاً، ناسب ذلك التنديد بمن قال بالوحي كذباً، {ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً} نزلت في ابن أبي سرح الذي استعمله عثمان على مصر وقد هدر رسول الله دمه وكان حسن الخط من كتابة الوحي فإذا قال له الرسول (صلى الله عليه وآله): اكتب: «إن الله عزيز حكيم» كتب: «إن الله عليم حكيم» وهكذا، وكان يقول للمنافقين: إني أقول من نفسي مثل ما يجيء به. ثم ارتد كافراً إلى مكة وصار من الطلقاء يوم فتح مكة. ثم لايخفى أن قوله سبحانه «ومن أظلم» على سبيل الحصر الإضافي، كقوله: (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ)(٥٩)، وغيره.

{أو قال أوحي إليّ ولم يوح إليه شيء} كمسيلمة الكذاب الذي ادّعى النبوة كذباً، وكغيره ممن ادّعى هذا المنصب افتراءً، نحو: {ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله} من الآيات أو الأحكام.

في «المجمع»: قيل: المراد به عبد الله بن سعد بن أبي سرح، أملى عليه رسول الله (صلى الله عليه وآله) ذات يوم: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ طِينٍ ـ إلى قوله ـ ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ)(٦٠)، فجرى على لسان ابن أبي سرح: «فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ» فأملاه عليه وقال: هكذا أنزل فارتد عدو الله وقال: لئن كان محمد صادقاً فقد أوحي إليّ كما أوحي إليه ولئن كان كاذباً فلقد قلت كما قال(٦١).

---

(٥٩) سورة البقرة: ١١٥.

(٦٠) سورة المؤمنون: ١٣-١٥.

(٦١) مجمع البيان: ج٤، ص١١١.

{ولو ترى} يا رسول الله {إذ الظالمون في غمرات الموت} أي في شدائد الموت عند النزع، كأن الموت بشدائده يغمرهم مرة فمرة، كما يغمر الماء الغريق {والملائكة} القابضة لأرواحهم {باسطو أيديهم} لقبض أرواحهم بأبشع الوسائل يضربون وجوههم وأدبارهم، قائلين لهم: {أخرجوا أنفسكم} من أجسادكم، وهذا للإذلال والإهانة، وإلا فليس خروج أنفسهم بإمكانهم، بل بقدرة الله تعالى {اليوم تجزون} أيها الظالمون {عذاب الهون} فإنه ليس عذاباً جسدياً فقط بل معه ذلة وهوان {بما كنتم تقولون على الله غير الحق} أي جازاكم بعذاب الهون بسبب مقالتكم الكاذبة على الله حيث كنتم تقولون: «أوحي إلينا ولم يوح إليكم» ومعنى «على الله» أي بالنسبة إليه سبحانه {و} بما {كنتم عن آياته} ودلائله {تستكبرون} فلا تخضعون لأحكامه وأنبيائه، وجواب «لو» محذوف للتهويل، أي: لو رأيت ذلك لرأيت أمراً فظيعاً مريعاً.

[٩٥] وهنا يوجّه الباري سبحانه كلامه إليهم {ولقد جئتمونا} أيها الظالمون {فرادى} أي في حال كونكم وحداناً لا مال لكم ولا مدافع، بل واحداً واحداً {كما خلقناكم أول مرة} حين جئتم إلى الدنيا {وتركتم ما خولناكم} أي ما أعطيناكم من المال والأقرباء والخدم {وراء ظهوركم} في دار الدنيا، فإن الإنسان باعتبار إقباله على الآخرة تكون الدنيا وراء ظهره {وما نرى معكم شفعاءكم} الذين اتخذتموهم لأنفسكم شفعاء يشفعون لكم يوم القيامة {الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء} أي الأصنام التي كان المشركون يزعمون أنها شركاء الله سبحانه في الخلق والرزق وقضاء الحوائج، وقد كان المشركون يقولون: إنّ هذه الأصنام تشفع لنا يوم القيامة. وورد أن سبب نزول هذه الآية أن النضر قال: سوف يشفع لي اللاّت والعزّى.

{لقد تقطّع} أيها الظالمون {بينكم} وبين الأصنام فلا مواصلة تنفع للشفاعة {وضل عنكم} أي ضاع وتلاشى {ما كنتم تزعمون} من الآلهة المزعومة فلا تجلب نفعاً ولا تدفع خيراً.

إِنَّ اللهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللهُ فَأَنَّى
تُؤْفَكُونَ (٩٦) فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ
(٩٧) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ
يَعْلَمُونَ (٩٨) وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ
يَفْقَهُونَ (٩٩) وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً
نُخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُتَرَاكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ
مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١٠٠) وَجَعَلُوا
للهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ (١٠١) بَدِيعُ
السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ
(١٠٢)

[٩٦] إن أصنامكم لا تشترك مع الله في الخلق ولا في أي شيء من الشؤون بل {إن الله} وحده {فالق الحب والنوى} أي يشق الحب اليابس الميت ويخرج منه النبات ويشق نواة التمر فيخرج منها النخل {يخرج الحيّ من الميت} فالنبات حي يُخرجه من الحبة التي لا حياة فيها، والفرخ حيّ يخرجه من البيض الميت، والولد الحيّ يخرجه من الأم الميتة، والبعوض وأشباهه يخرجه من الماء الميت، وهكذا {ومخرج الميت من الحي} كالحبة من النبات، والبيض من الدجاج، والجنين الميت من الأم الحية، والفضلات الميتة من الحيّ، وكأن التغيّر في العبارة «يخرج» و«مخرج» للتفنّن في العبارة الذي هو نوع من أنواع البلاغة {ذلكم الله} أي ذلك الذي يفعل كل ذلك ـ أيها البشر ـ هو الله وحده {فأنى تؤفكون} أي تصرفون عن الحق إلى الباطل.

[٩٧] {فالق الإصباح} أي يشق عمود الصبح عن ظلمة الليل، ويخرج الضياء من الظلمة {وجعل الليل سكناً} تسكنون فيه وتهدؤون عن العمل إذا أظلم {و} جعل {الشمس والقمر حسباناً} تجريان في أفلاكهما بحساب دقيق، و«حسبان» مصدر، وكونهما حسباناً أي مصدري حساب وتوقيت، نحو: «زيد عدل»، مما حمل المصدر على الذات مبالغة، فمن الشمس تتولد الأيام، ومن القمر تتولد الشهور والأعوام {ذلك} المذكور من فلق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً {تقدير العزيز} في سلطانه {العليم} بمصالح العباد، فأي شيء يرتبط بأصنامكم أيها الضالون.

[٩٨] {وهو الذي جعل لكم} أيها البشر {النجوم} في السماء {لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر} فإن الإنسان يعرف طريقه من النجم في الليالي، فمن قصد مدينة نحو المشرق جعل النجم

المشرقي أمامه، ومن قصد مدينة نحو المغرب، جعله خلفه، وهكذا {قد فصلنا الآيات} الدالة على الخالق وصفاته {لقوم يعلمون} أي لهم علم ومعرفة بالأوضاع.

[٩٩] {وهو الذي أنشأكم} أي خلقكم وأبدعكم {من نفس واحدة} هي آدم (عليه السلام) ومن فضل طينته خلقت حواء (عليها السلام)، إنه سبحانه القادر لمثل هذا الأمر العظيم {فـ} لكم {مستقر} في بطون الأمهات {ومستودع} في أصلاب الآباء، وإنما سمي ذلك مستودعاً لأن المني يبقى قليلاً في الصلب حتى ينزل، فهو أشبه بالوديعة {قد فصلنا الآيات} أي الأدلة والحجج {لقوم يفقهون} أي يفهمون الأدلة، كي يعلمون أن الله سبحانه هو الذي صنع كل ذلك.

[١٠٠] {وهو الذي أنزل من السماء ماءً} هو المطر، والمراد بالسماء جهة العلو، فإن ما علاك فأظلك هو السماء ـ في لغة العرب ـ {فأخرجنا به نبات كل شيء} أي أخرجنا بسبب الماء نبات كل شيء قابل للإنبات من مختلف أقسام النباتات {فأخرجنا منه} أي من الماء، والتكرار، لأنه أجمل أولاً، ثم أريد التفصيل، أو الضمير عائد إلى النبات، فإن النبت أولاً ليس أخضر، وإنما أبيض صغير ثم يصير أخضر {خضراً} هو بمعنى أخضر، أي نخرج من ذلك زرعاً رطباً أخضر {نخرج منه} من ذلك الزرع الأخضر {حباً متراكباً} قد تركّب بعضه على بعض كحب الحنطة والشعير {و} يخرج {من النخل من طلعها} بدل «من النخل» {قنوان} أي أعذاق الرطب، فإن «قنوان»: جمع «قنو» بكسر القاف وضمها، وهو «العذق» بالكسر {دانية} أي قريبة التناول {و} أخرجنا منه {جنات} أي بساتين {من أعناب} جمع «عنب» {و} أخرجنا منه {الزيتون والرمان} أي شجريهما {مشتبهاً وغير متشابه} فبعض الأشجار والأثمار والأوراق والأزهار والحبات متشابهة وبعضها غير متشابهة، في اللون والطعم والحجم والخاصية وغيرها. والاختلاف بين لفظي «مشتبه ومتشابه» من أحسن أنواع البلاغة، لتطابق اللفظ والخارج {انظروا} أيها الناس {إلى ثمره} أي ثمر كل واحد من المذكورات {إذا أثمر} فإن في ذلك دلالة عجيبة على الصانع تعالى {و} انظروا إلى {ينعه} أي نضجه إذ نضج، فإن من نظر إلى ذلك نظر تأمل واعتبار، عرف عظيم الصنعة وجليل الخلقة، ودقيق الحكمة، و«ينع» في اللغة بمعنى «النضج» وقيل: جمع «يانع»؛ كصحب وصاحب {إن في ذلكم} أي فيما تقدم من الخلقة {لآيات لقوم يؤمنون} بالحقائق، ويتجنبون السخافة.

[١٠١] إن الله هو خالق كل شيء وهو الإله الواحد الذي لا شريك له {و} لكن الكفار {جعلوا لله شركاء الجن} فقالوا بأن لله شركاء في الألوهية هم من الجن {و} الحال أنه سبحانه هو الذي {خلقهم} أي خلق الجن، فكيف يكون المخلوق شريكاً مع الخالق في الألوهية {وخرقوا} أي جعلوا، ولا يخفى ما في التعبير بلفظ «خرقوا» من اللطافة. {له} تعالى {بنين وبنات} فقد قال اليهود: عزير ابن الله، وقالوا: نحن أبناء الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله، وجعل المشركون الملائكة بنات الله، كما

قال سبحانه: (وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً)[٦٢]، {بغير علم} فإن ذلك منهم كان ظناً وتوهماً {سبحانه} منصوب بفعل محذوف، أي: «أنزهه تنزيهاً له» {وتعالى} أي تقدس وترفع {عما يصفون} أي الأوصاف التي يلصقونها بساحة قدسه، من جعل الشريك والأولاد.

[١٠٢] إنه وحده هو {بديع} أي مبدع {السماوات والأرض} وخالقهما بلا شريك أو ظهير، وهذا ردّ على من جعل له شريكاً {أنى} أي كيف {يكون له ولد و} الحال أنه تعالى {لم تكن له صاحبة} أي زوجة؟ وهذا رد لمن جعل له أولاداً {وخلق كل شيء} فهو الخالق المطلق، {وهو بكل شيء عليم} فهو العالم المطلق.

(٦٢) سورة الزخرف: ٢٠.

ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٠٣)
لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٤) قَدْ جَاءكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ
أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (١٠٥) وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ وَلِيَقُولُوا
دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١٠٦) اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ
الْمُشْرِكِينَ (١٠٧) وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ
(١٠٨) وَلاَ تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ
عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٠٩) وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ
جَاءتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ (١١٠)
وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١١)

[١٠٣] {ذلكم} أي ذلك المذكور له الصفات المتقدمة هو {الله} تعالى، و«كم» للخطاب إلى السامعين {ربكم لا إله إلا هو} فلا شريك له {خالق كل شيء} فلا شيء خارج من خلقه، حتى يكون له شريكاً {فاعبدوه} وحده {وهو على كل شيء وكيل} أي حفيظ ومدبّر وقائم، فلا حافظ غيره، ولا قائم بالأمر أحد سواه.

[١٠٤] {لا تدركه الأبصار} فإنه سبحانه ليس بجسم حتى يكون مرئياً، وهذا لا فرق فيه بين الدنيا والآخرة، فهو لا يُبصر في الدنيا ولا يُبصر في الآخرة {وهو يدرك الأبصار} روعي في الكلام التجانس اللفظي، وإلا فهو يدرك كل شيء الأبصار وغيرها {وهو اللطيف} لا يراد به اللطف بالمعنى في الأجسام، المراد به النافذ في الأجسام، والرقيق، وما أشبه، بل من باب «خذ الغايات واترك المبادئ» فعلمه نافذ في الأشياء، وقدرته سارية في الأكوان {الخبير} العالم بكل شيء.

[١٠٥] {قد جاءكم} أيها البشر {بصائر من ربكم} «بصائر» جمع «بصيرة» وهي الدلالة البيّنة التي يُبصر بها الشيء، أي جاءتكم دلالات من قبل الله سبحانه، على الأصول، والأحكام {فمن أبصر} أي من تبيّن هذه الدلالات ونظر فيها نظر معتبر بصير {فلنفسه} فإنه يعود خير ذلك إلى ذاته وشخصه {ومن عمي} عنها فلم ينظر فيها وأعرض عنها {فعليها} أي أن وبال الإعراض يعود على نفسه {وما أنا} المراد بالضمير الرسول (صلى الله عليه وآله){عليكم} أيها الناس {بحفيظ} أحفظكم عن الخطأ والانحراف، وإنما أنا مبلغ مرشد، من آمن فلنفسه ومن ضل فعليها.

[١٠٦] {وكذلك} أي مثل تصريفنا الآيات من ذي قبل {نصرّف} هذه {الآيات} نرسلها ونبيّنها {وليقولوا درست} أي يقول الكفار: درست هذه الآيات وتعلمتها من غيرك، كما كانوا

ينسبون القرآن إلى تعلمه (صلى الله عليه وآله) من الراهب في طريق الشام، أو من سلمان، أو من بعض اليهود {ولنبيّنه} أي نوضّح ما تقدم من الآيات {لقوم يعلمون} أي للعلماء الذين يعلمون الآيات، فإن هؤلاء هم المنتفعون بالآيات، ولذا خصّهم بالذكر.

[١٠٧] {اتبع} يا رسول الله {ما أوحى إليك من ربك} وهو {لا إله إلا هو} وذر الأصنام والأوثان، فإن صاحب الدعوة لا يبالي بما قاله المغرضون، ولا يضره انحراف المنحرفين {وأعرض عن المشركين} فلا تتعرض لهم، وليس المراد عدم دعائهم إلى الإسلام، أو عدم القتال معهم، بل معناه: «أعرض عن أقوالهم وطريقتهم»، وهذا كما يقال: «أعرض عن فلان» يراد عدم الاهتمام بقوله والاعتناء بشأنه، وأنه لا بد من سلوك الطريق المستقيم أحبّ أم كره.

[١٠٨] {ولو شاء الله} أن يكرههم على عدم الشرك {ما أشركوا} ولكن الدنيا دنيا اختبار وامتحان، وإنما يريهم الله سبحانه الطريق، فمن شاء آمن ومن شاء أشرك {وما جعلناك} يا رسول الله {عليهم حفيظاً} تحفظهم عن الشرك، حتى يكون إثم الشرك عليك {وما أنت عليهم بوكيل} أي لست بموكل عليهم في ذلك، وإنما عليك البلاغ والإنذار، ولعل الفرق بين الحفيظ والوكيل، أن الحفيظ هو الذي يحفظ الشيء عن الضرر، والوكيل هو الذي يناط به أمره، فيجب عليه دفع الضرر عنه وجلب النفع إليه، فهو أعم من الحفيظ.

[١٠٩] {ولا تسبوا} أيها المسلمون الآلهة {الذين يدعون}ها الكفار {من دون الله} أي سوى الله {فيسبوا الله} مقابلة بالمثل {عدواً} أي ظلماً، بمعنى التعدي عن الحق {بغير علم} فإنهم جاهلون بالله، وإلا لماذا كانوا يسبونه، ويتخذون آلهة سواه؟ {كذلك} الاعتقاد بالآلهة الباطلة {زينا لكل أمة عملهم} فإن كل إنسان يرى عمله حسناً، ولو تفكر وقارن رأى الصحيح من عمله وأباطيله. ونسبة التزيين إلى الله سبحانه لأنه هو الذي يخالف الخلق وسبب الأسباب، وذلك للامتحان، وليتبين من يخالف نفسه ومن يتبع هواها {ثم إلى ربهم مرجعهم} فإن الجميع يرجعون إلى حساب الله سبحانه، وثوابه وعقابه {فينبئهم} أي يخبرهم {بما كانوا يعملون} من الأعمال الحسنة والقبيحة، ومعنى ذلك أنه يُجازيهم بأعمالهم، كما تقول لابنك العاصي: «أخبرك بما عملت..» تريد التهديد والوعيد.

وهنا سؤال: كيف نهى الله عن سبّ الأصنام، وفي القرآن كثير من القدح فيهم؟

والجواب: إن الفرق بين سبّ الحكيم وسبّ الجاهل أن الأول يعرف موقع السب، بخلاف الثاني، كما لو نهى القاضي عن ضرب الناس، ورأينا أنه يضرب بنفسه لحدٍّ أو قصاص، فإن الأمرين لايتنافيان.

[١١٠] {وأقسموا} أي حلف الكفار {بالله جهد أيمانهم} أي أيمانهم الغليظة {لئن جاءتهم آية} أي معجزة خارقة حسب ما طلبوا من مقترحاتهم {ليؤمنن بها} أي بتلك الآية {قل} يا رسول الله لهم: {إنما الآيات} الخارقة {عند الله} ومن لدنه، وليس لدي منها شيء، فإن عرف الله الصلاح في

الإتيان بها أظهرها، وإن عرف الصلاح في عدم الإتيان لم يأت بها {وما يشعركم} أيها المؤمنون {أنها} أي الآيات {إذا جاءت لا يؤمنون} كما جاءت الآيات من قبل فلم يؤمنوا. والسر أن المعاند لا تفيده الآية، والطالب للحق تكفيه ما تقدم من الآيات، فإنزال الآيات المقترحة لا فائدة فيها.

[١١١] {ونقلب أفئدتهم} جمع «فؤاد» وهو القلب {وأبصارهم} جمع «بصر» وهو العين {كما لم يؤمنوا به} أي بالقرآن {أول مرة} فإنهم جوزوا بإنكارهم أول الأمر الذي استلزم عنادهم وتماديهم في غيهم، بأن أزعجت نفوسهم، فجعلت قلوبهم تخفق، وأبصارهم تتحرك زائغة، كما هو شأن كل مبطل أمام الحق أنه لا يدري ما يصنع، وعينه تتلفت هنا وهناك تبحث في الأرض والسماء عن طريق المهرب والخلاص من الأزمة التي وقع فيها {ونذرهم} أي ندعهم {في طغيانهم} الذي طغوا وتعدوا فيه الحق {يعمهون} يتردّدون في الحيرة.

وقد روي أنهم لما طلبوا الآيات، أراد النبي (صلى الله عليه وآله) أن يسأل ربه بتلك الآيات، فجاء جبرئيل وقال: إن شئت أصبح الصفا ذهباً، ولكن إن لم يصدقوا، عُذّبوا، وإن شئت تركتهم حتى يتوب تائبهم، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): بل أتركهم حتى يتوب تائبهم(٦٣)، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

نهاية الجزء السابع

(٦٣) بحار الأنوار: ج٩، ص٩١.